

تأويل الشاهد القرآني في كتاب "الفتوحات المكية"

قراءة نقدية في دلالات التراكيب

د. مها محمد زكي يس خضر (*)

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام علي سيد المرسلين سيدنا محمد وعلي آلّه وصحبه أجمعين أما بعد ؛ فقد سخر الله عز و جل لكتابه العزيز علماء اختصهم بفضله ورعايته ، وأعطاهم من مواهب العلم والصبر مما يقومون به علي تحصيله قراءة ودرسا ، فتعاهدوه علي مر الأزمان تفسيرا وفكرا ؛ فتنوعت التفسيرات وتعددت التأويلات ، وكلها وإن اختلفت مشاربها تشترك في وجهة واحدة وهي التبصير بآيات الله وآلته في خلقه ، وبه يتوصل إلى سر الإعجاز القرآني. ولأن هؤلاء العلماء أرادوا الحق من مظانه ، وأخلصوا جهودهم متقربين إلى الله بكتابه ، فلا نجدهم إلا وقد أصابوا وأضافوا ، كل منهم بقدر شاءه الله لهم . وقد نجد هذا الجهد ظهر في مجموعة من التفسيرات التي أخذت المأثور منها لها أو التأويل بما يتفق ولفظ القرآن طريقة للوصول إلى أسرارهِ الجليلة . جانب آخر من ذلك الجهد ظهر في الشواهد القرآنية التي تتضمنها مؤلفات تتصل بالفكر الديني ، وتتوصل لمذاهبه المختلفة حيث يجد أصحابها في موضع الشاهد إضاءة تصل بهم إلى نكتة بلاغية أو انفراد تأويلي يتحقق به ما يتحقق لكل مجتهد إذ يتقلب بين الإصابة والخطأ.

ويعد كتاب "الفتوحات المكية" بمضمونه المثير للجدل أحد مؤلفات التي توقفت أمام الشاهد القرآني بمزيد من التأمل، ولم يكتف صاحبهِ بالاستدلال

(*) كلية الآداب والفنون - جامعة حائل (بلاغة ونقد) المملكة العربية السعودية .

تأويل الشاهد القرآني في كتاب (الفتوحات المكية)

بالآية القرآنية فحسب؛ بل قلب فيها وجوه الرأي، وقدم رؤية خاصة، وناظر بين التراكيب المتقاربة، وميز فروقها اللغوية والدلالية الدقيقة، ولا يخفى ما قدمه من توجيه إشاري بما يحمله من "رموز باطنة تظهر لأرباب السلوك" ^(١) من أصحاب المنهج الصوفي. كما لا يخفى ما شاب رؤيته من شرود يأبى أصحاب الفكر المعتدل تقبله، وهو أمر لا يدفع الباحث بطبيعة الحال إلى إهمال الكتاب لأجله، بل يستدعي طرح الأفكار ومناقشة الآراء وإظهار الغث من الثمين.

ولتفصيل ما سبق بحثت في الشواهد القرآنية؛ ووجدت أنها تقوم على

محورين :

أولاً: التأويل النظري.

ثانياً: التوجيه الإشاري .

وهما أساس التفسير الصوفي والفرق بينهما أن الأول " يبنّي على قواعد نحوية أو بلاغية فهذا إن ساعده السياق... قبل... " ^(٢) كما أنه " يبنّي على مقدمات علمية " ^(٣) والثاني " يرتكز على رياضة روحية يأخذ بها الصوفي نفسه حتى يصل إلى درجة تتكشف بها سجد العبارات... " ^(٤) لذا يكون توجهه لمعاني الآيات خاصاً بطريقته خارجاً في كثير من أحواله عن سياق الآيات ويحمل كثيراً من الشطحات .

وتعني هذه الدراسة بالمحور الأول نظراً لكونه يتصل بالأبنية والدلالات البلاغية ويشارك في التوصل إلى أسرار الإعجاز في القرآن الكريم .

(١) مصطفى إبراهيم المشيني- مدرسة التأليف في الأندلس- مؤسسة الرسالة- بيروت- ط ١/ ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م- ص ٦٣٩ .

(٢) الذهبي؛ محمد حسين - التفسير والمفسرون - مكتبة وهبة ٢٠٠٣ - ج ٢ - ص ٢٥٩ .

(٣) السابق ٢٦١ .

(٤) السابق نفسه .

التمهيد

يعد كتاب الفتوحات المكية لمؤلفه المعروف بـ "محيي الدين بن عربي" ^(١) من أشهر المؤلفات الصوفية ذيوعا وإثارة للجدل لما ذهب فيه من أقوال تحمل أخطاء عقائدية وفكرية وأشهرها "وحدة الوجود" التي تبناها غيره ممن وصفوا "بالاتحادية" فنسب إلى الكفر والضلال ^(٢) وعدت كتبه عند بعض

(١) محمد بن علي بن محمد بن عربي، أبو بكر الحاتمي الطائي الأندلسي من ولد عبد الله بن حاتم أخي عدي بن حاتم من قبيلة طيء ٥٦٠-٦٣٨ هـ = ١١٦٥-١٢٤٠م المعروف بمحيي الدين بن عربي الملقب بالشيخ الأكبر ويعرف بالحاتمي وبابن عربي لدى أهل المشرق تقريبا بينه وبين القاضي أبي بكر بن عربي . ولد في مرسية بالأندلس وانتقل إلى أشبيلية ، وقام برحلة ؛ فزار الشام وبلاد الروم والعراق والحجاز ، وأنكر عليه أهل الديار المصرية "شطحات" صدرت عنه فعمل بعضهم على إراقة دمه - كما أريق دم الحلاج وأشباهه - وحبس فسعى في خلاصه "علي بن فتح البجائي" من أهل بجاية فنجا ، واستقر في دمشق ، سمع من "بشكوال" ، وابن صاف " وسمع بمكة من "زاهر بن رستم" من دمشق ... وكان ذكيا ، كثير العلم كتب الإنشاء لبعض الأمراء بالمغرب ، ثم تزهد وتفرّد ، وتعبد وتوحد ، وسافر وتجرد ، وأتمم وأنجد ، وعمل الخلوات ، وعلق شيئا كثيرا في تصوف أهل الوحدة ... له شعر رائق وعلم واسع ، وذهن وقاد . وهو- كما يقول الذهبي - قدوة القائلين بوحدة الوجود . له نحو أربعمئة كتاب ورسالة ؛ منها الفتوحات المكية : توفي بدمشق . خير الدين الزركلي - الأعلام - دار العلم للملايين - بيروت - ج/٦ - ص ٢٨١ - ٢٨٢ . وشمس الدين محمد بن أحمد الذهبي - سير أعلام النبلاء - دار الحديث - القاهرة - ط/ ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م ج/١٦ - ص ٣١٠ . الفتوحات المكية - ضبطه أحمد شمس الدين - دار الكتب العلمية - بيروت - ط/٢ - ٢٠٠٦ م - ١٤٢٧ هـ - ج/١ ص ٣

(٢) وهو ما رآه الشوكاني في قوله " فاعلم أنها قد جمعتهم خصلة كفرية هي القول بوحدة الوجود " بدر الدين الشوكاني - الصوارم الحداد القاطعة لعلائق مقالات أرباب الاتحاد - ت : د / محمد ربيع هادي - ط ٢ - ٢٠٠٧ م - مكتبة عبد المنصور بن

محمد - القاهرة - ص ١٠٦

تأويل الشاهد القرآني في كتاب (الفتوحات المكية)

علماء الإسلام مما يحرم الاطلاع عليه^(١)، والكتاب -كما وصفه صاحبه- " في معرفة أسرار المالكية والملكية ؛ إذ كان الأغلب فيما أودعت من هذه الرسالة ما فتح الله به علي عند الطواف ببيته المكرم أو تعودي مراقبا له بحرمة الشريف المعظم ، وجعلتها أبوابا شريفة ، وأودعتها المعاني اللطيفة..."^(٢) الكتاب يشتمل على فيض من الأفكار المتفرقة وهو ما يتضح في وصف خطته فيقول " فلنقدم قبل الشروع في الكلام على أبواب هذا الكتاب بابا في تمهيد أبوابه ، ثم نثله بمقدمة في تمهيد ما يتضمنه هذا الكتاب من العلوم الإلهية الأسرارية..."^(٣) وقد جعل الباب الأول فهرست أبواب الكتاب وليس معدودا في الأبواب ؛ وهو في فصول ستة الفصل الأول في " المعارف " وهو مجموعة متفرقة من المعارف كعرفة الروح وتنزيه الحق وبدء العالم وبدء أسرار الخلق والجسوم الإنسانية وأسرار دورة الفلك ... الفصل الثاني في "المعاملات " ويتناول موضوعات متفرقة -كما في الباب الأول - تتصل بعلاقة العبد بربه كالتوبة وتركها ، والمجاهدة وتركها ، والخلو وتركها ، وتقوى الله ومعرفة الورع وأسراره ، والزهد وأسراره ، ومقام الصمت

(١) قال شيخ الإسلام "ابن تيمية" رحمه الله تعالى وهو يتكلم عن (الاتحادية) "ويجب عقوبة كل من انتسب إليهم أو ذنب عنهم، أو أثنى عليهم، أو عظم كتبهم، أو عرف لمساعدتهم ومعاونتهم، أو كره الكلام فيهم، أو أخذ يعتذر لهم بأن هذا الكلام لا يدري ما هو، أو من قال إنه نصف هذا الكتاب؟ وأمثال هذه المعاذير التي لا يقولها إلا جاهل أو منافق، بل تجب عقوبة كل من عرف حالهم ولم يعاون على القيام عليهم، فإن القيام على هؤلاء من أعظم الواجبات، لأنهم افسدوا العقول والأديان على خلق من المشايخ والعلماء والملوك والأمراء، وهم يسعون في الأرض فسادا ويصدون عن سبيل الله، فضررهم في الدين أعظم من ضرر من يفسد على المسلمين دنياهم"

ابن تيمية - مجموع الفتاوى - ط مجمع الملك فهد - المدينة المنورة (٢ - ١٣٢)

(٢) الفتوحات المكية - خطبة الكتاب - ج ١ ص ٢٥

(٣) السابق .

وأسراره والفصل الثالث في "الأحوال" وفيه يعرض لرياضة الصوفية كمعرفة السفر وأحواله والمقام وأسراره ، والشطح ، والوصل ، والمشاهدة ، والفناء ، والرهبنة ، وغير ذلك وأسرار كل منها . والفصل الرابع في "المنازل" وهو معرفة منزلة القطب والإمامية في المناجاة ... وفيه يعرض ما سماه منزلا كمنزلة الحوض وأسراره والاعتبار والذكر والتسبيح والحراسة الإلهية والإخلاص ... وغير ذلك وأسرار كل منها . وجعل الفصل الخامس في "المنازلات" وفيه يوضح ما سماه منازلات كمنازلة جبل الوريد والتواضع الكبرىائي وعين القلب ، وقاب قوسين ... وهي موضوعات متفرقة لا صلة لأحدها بالآخر . أما الفصل السادس فهو في "المقامات" في معرفة الأقطاب ومنازلهم . وهذه الفصول كلها مقسمة إلى أبواب وكل باب يمثل سنة من بداية الهجرة إلى عام مولده . إن السرد السابق لعناوين الفصول وأهم مضامينها ليكشف للقارئ مدى تشعب الكتاب وصعوبة تقديم وصف إجمالي له ؛ فضلا عن ظاهرة الاستطراد المستمر بين فقرات كل صفحة منه ؛ فالمؤلف يخرج من فكرة إلى أخرى ؛ ومن موضوع إلى آخر حسب "ما فتح الله عليه" - على حد قوله - بلا نسق ولا منهجية ؛ وإن ظهر خلاله تنوع فكره ؛ وقوة حافظته ؛ وتمكنه من نظم رؤيته شعرا ؛ وقدرته على استدعاء الشاهد من القرآن والحديث والمأثور ؛ وتوارد القصص التي عرفها عن الصوفية . ونجد في ذلك كله تفاوتاً في أقواله بين ما هو مقبول لدى من ليس على مذهب الصوفية ؛ وما يتعجب له القارئ ؛ وما لا يقبله مما يمكن أن نطلق عليه "شطحات" في القول مثل تناوله غيبيات لا يتأتى لبشر أن يطلع عليها كوصفه للعرش ومشاهد من العالم العلوي ، وهو في كل ذلك لا يترك موضعاً إلا استشهد بآيات من القرآن الكريم وقدم لها تأويلاً خاصاً أو إشارة صوفية أو رمزية ... مما يمنح مادة ثرية للباحث ؛ لا سيما وأنه يمكن النظر فيها بمعزل عن مضمون موضوعها الذي وردت فيه ؛ وهو ما يحقق الفائدة والأهداف المرجوة دون الخوض في

== تأويل الشاهد القرآني في كتاب (الفتوحات المكية) ==

مسائل طرحها المؤلف تحتاج كثيرا من النقاش ؛ و أخرى من الأخرى ترك النظر فيها أصلا . وقد اقتصصت هذا البحث بالشواهد التي تعرض فيها المؤلف لمسائل دلالية بيانية ؛ وانتقيت للعرض ما رأيت أنه يضيف لجهد السابقين مما يُنتفع به؛ وجعلته في مبحثين .

* *

المبحث الأول

الفروق البنائية

يمثل الاتصاق البنائي أحد وجوه إعجاز القرآن وهو ما وصفه عبد القاهر الجرجاني بقوله " واعلم أن النظم ليس إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله ؛ وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيع عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل منها بشيء " (١) فمن خلال بناء الجملة وربطها بسياقها نتوصل إلى مقصدها ونذكر خاصيتها الفريدة التي بها كان التحدي ، وتزداد الإضاءة حينما نقف عند الأبنية المتقاربة في الأنساق في موضعين مختلفين ونتأمل ما ترتب من اختلاف في دلالاتها مع العدول في وحدات البناء واختلاف السياق . وإذا كان التشابه في الألفاظ تناوله الدارسون تحت مسمى "الفروق اللغوية" وما تشعب منه من مسميات ؛ وفيه قدم العلماء تعليقات لسر استخدام لفظة دون مرادفها لإزالة المشكل بين الألفاظ المتشابهة تشابها يلتبس فيه أحدهما بالآخر في الاستعمال ؛ بهدف الكشف عن دقة الاستخدام القرآني للألفاظ وبه تكون الفصاحة والبلاغة ؛ وهو ما وصفه ابن الأثير بقوله " ومن عجيب ذلك أنك ترى لفظتين تدلان على معنى واحد ، وكلاهما حسن في الاستعمال ، وهما على وزن واحد ؛ وعدة واحدة ؛ إلا أنه لا يحسن استعمال هذه في موضع تستعمل فيه هذه بل يفرق بينهما في مواضع السبك ، وهذا لا يدركه إلا من دق فهمه وجل نظره " (٢) مما كان له أثره في الكشف عن دقة البيان القرآني ، فإن جانباً أوسع من روعته تتضح من خلال

(١) عبد القاهر الجرجاني - دلائل الإعجاز - دلائل الإعجاز - ت : محمد التيجي - ط - دار

الكتاب العربي - ط ١ - ٢٠٠٥ م . ص ٦٩ ، ٧٠ .

(٢) ابن الأثير - المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر - ت / محمد محيي الدين عبد

الحميد - المكتبة العصرية - بيروت - ١٩٩٥ م ج ١ / ص ١٥٠ .

== تأويل الشاهد القرآني في كتاب (الفتوحات المكية) ==

النظر في فروق الأبنية ؛ وما أضفته من دلالات يتوصل إليها من خلال السياق بمستوييه : الجزئي وأقصد به المحيط بالنص كالجملية في الآية أو مجموع الآيات داخل السورة الواحدة ، والكلي العام وهو السياق القرآني بأكمله ، إن النظر في ثنائيات الأبنية في ذلك الإطار من شأنه أن يكشف دقائق الاستخدام القرآني وما به من إحكام في نسجه . وقد تناول "ابن عربي" جانباً من ذلك على مستويات عدة منها : الوقوف على دلالات التثنية والجمع في آيات خلق الله للكون فقد اختص خلق آدم بتثنية اليمين في قوله تعالى " قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي ... " ص ٧٥ والجمع في خلق الأنعام في قوله " أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ " يس ٧١ فرأى أن التثنية في الأولى "على جهة التشريف والاختصاص لآدم عليه السلام فما أضاف آدم إلى يديه إلا على جهة التشريف على غيره والتتويه لتعلم منزلته عند الله . ثم زاد في تشريفه بخلقه باليمين [قوله معروف الأناسي بكمال الأناسي المكملين]* وهو ما أشار إليه القرطبي في قوله " أضاف خلقه إلى نفسه تكريماً له "(١) فخلق آدم خلق إلهي محض ونشأة أولى بما في لفظة خلق من

* هكذا وجد في النص الأصلي . ويقصد هنا خلق آدم في تمام خلقه وأكمل صورته .
الفتوحات المكية ج/٦ ص ٣ ، ٤ .

(١) القرطبي - الجامع لأحكام القرآن - راجعه وضبطه وعلق عليه د/ محمد إبراهيم الحنفائي - دار الحديث - القاهرة - ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م - مج ٨ ص ١٩٣ ويشير أيضاً أن ذلك من باب تقريب المفاهيم إلى الناس فأضاف الروح إلى نفسه والبيت والناقة والمساجد فخطب الناس بما يعرفونه في تعاملهم ، فإن الرئيس من المخلوقين لا يباشر شيئاً بيديه إلا على سبيل الإعظام والتكريم ، قال مجاهد : اليد ههنا بمعنى تأكيد الصلة ، مجازة لما خلقت أنا ... وقيل : التشبيه في اليد في خلق الله دليل على أنه ليس بمعنى النعمة والقوة ؛ وإنما هما صفتان من صفات ذاته تعالى ، وقيل أراد باليمين القدرة ... وقيل " لما خلقت بيدي بغير واسطة " السابق نفسه . ورأى الزمخشري أن جهة التشريف في ذكر خلقه أنه باشر خلقه بيده جاءت على سبيل المجاز يقول " لما كان ذو اليمين =

دلالة الإيجاد الأول . أما في قوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا ... ﴾ يس ٧١ فقد " أضاف عمل الخلق إلى الأيدي الإلهية وعم الأسماء الإلهية بالنون ... وذلك تمام التشريف الذي شرف به آدم عليه السلام في إضافة خلقه إلى يديه ؛ فهي من تمام إنعامه عليهم " فَهَمْ لَهَا مَا لَكُونُ " يس ٧١ فملكوها بتمليك الله بخلاف الإنسان فإنه يمتلكها من نفسه بنفسه... فكل يد خالقة في الكون العالم فهي يده يد ملك وتصريف فالخلق كله لله ... فوحد اليد وثناها وجمعها وما ثناها إلا في خلق آدم عليه السلام وهو الإنسان الكامل... " (١) فالله خص آدم بأن جعله مالكا لنفسه أما غيره من المخلوقات فجعلها الله للإنسان بالتبعية فتصرفه بيد الله وبمال الله الذي آتاه .

- وقف "ابن عربي" على الفرق بين سياقَي فعلى "القدرة" و"المشيئة" في الوعيد بإذهاب نعم الله في حال جحودها أو عصيانه ؛ ووازن بين توجيه خطاب الله للبشر بذلك الوعيد والإخبار بتلك القدرة على غير الإنسان من الموجودات في هذا الكون ؛ يتضح ذلك في قوله تعالى ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ﴾ النساء ١٣٣ وقوله تعالى ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَارِرُونَ ﴾ "المؤمنون" ١٨ فعلق الذهاب بالمشيئة في الأولى وعلق الذهاب بالاعتقاد في الثانية ؛ وفي ذلك يقول " وهنا علم شريف وهو متعلق القدرة الإيجاد لا الإعدام فيعترض هنا

مباشراً أكثر أعماله بيده غلب عمل اليدين على سائر الأعمال التي تباشر بغير اليدين حتى قيل في عمل القلب : هذا مما عملت يداك وجعل قوله تعالى " لما خلقت بيدي " إنما ذكر تقريراً للعلة التي منعت إبليس من السجود " الزمخشري - الكشاف - ط/ دار الكتاب العربي - بيروت - ١٤٠٧ هـ - ج/ ٤ ص ١٠٦ .

(١) الفتوحات المكية ج/ ٦ ص ٣ ، ٤ . رأى القرطبي أن المعنى " مما أبدعناه وعملناه من غير وكالة ولا شركة " وما " بمعنى الذي وحذفت الهاء لطول الاسم ... " فهم لها مالكون " أي " ضابطون قاهرون " الجامع لأحكام القرآن مج / ٨ ص ٥١ .

تأويل الشاهد القرآني في كتاب (الفتوحات المكية)

الأمر الواحد أن الذهاب المراد ليس الإعدام ، وإنما هو الانتقال من حال إلى حال فمتعلق القدرة ظهور المحكوم عليه بالحال التي انتقل إليها ، فأوجدت القدرة له ذلك الحال فما تعلقت إلا الوجود ؛ فإن وجود عين القائم بنفسه أعني بقاءه إنما هو مشروط بشرط بوجود ذلك الشرط يبقى الوجود عليه ، وذلك الشرط يمدّه الله به في كل زمان وله أن تمنع وجود ذلك الشرط ولا بقاء للمشروط به فلم يوجد شرط فانعدم المشروط^(١) فجعل المشيئة مقترنة بالإعدام وخلق آخرين مكانه ؛ وفي هذا إظهار وإعلام منه "باقتراره على إعدام الموجود وإيجاد المعدم على الشيء..."^(٢) والاقتران بالحكم بتغيير الأحوال من حال إلى حال ؛ فهو "لا يتعابى عليه شيء إذا أَراده، وهو أبلغ في الإيعاد"^(٣) و يعضد هذا تعدي الذهاب بنفسه في الآية الأولى "يذهبكم" و تعديه بحرف "الباء" في الثانية ؛ فالذهاب بالشيء يعني نقله من مكان إلى آخر ، ومما يؤكد ذلك تكرار هذا النسق في قوله تعالى ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ إبراهيم ١٩ وفي قوله تعالى ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ فاطر ١٦ "فانظر كيف أضاف الإلحاق بالعدم إلى المشيئة ولم يضيفه إلى القدرة التي يقع الخلق والجعل بها "؛ إن القرآن له مستوى رفيع من التبليغ لذا كان لكل لفظ دلالة الخاصة التي لا يمكن أن نضع مكانها

(١) الفتوحات المكية - ج ٦ - ص ١٠٦

(٢) الكشف - ج ٢ - ص ٥٤٧

(٣) السابق ج ٣ ص ١٧٩ وفي الجامع لأحكام القرآن معناه "الموت" - ج ٣ - ص ٣٥٥ في

قوله تعالى "وإنّا على ذهاب به" يعني الماء المختزن ، وهذا تهديد ووعد ، أي قدرتنا على إذهابه وتغييره ، ويهلك الناس بالعطش ... وقد يقصد فرغ من الأرض القرآن وجميع الأنهار الخمسة فيرفع ذلك إلى السماء فإذا رفعت هذه الأشياء من الأرض فقد أهلها خير الدين والدنيا

(٤) الفتوحات المكية - ج ٤ - ص ٣٥٥

أخرى فـ " كل لفظة وضعت لتؤدي نصيبها من المعنى أقوى أداء ... بل كل كلمة تحمل إليك معنى جديداً " (١) وإن تشابهت الأبنية . فإذا نظرنا إلى دلالة "الإحاطة" في قوله تعالى "وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ" البروج ٢٠ وقوله تعالى " وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ " البقرة ١٩ نجد أنها تشير إلى قدرة الله تعالى الإحاطة الكلية بالكون ولكن ذلك مختلف الطريقة ؛ يقول "ابن عربي" " لما كان الحق عين الوجود لذلك اتصف بالإحاطة ؛ وإنما جعل الإحاطة بالوراء للحفظ الإلهي ... فهو- أى الإنسان - من أمامه محفوظ بنفسه ومن خلفه بربه وليس وراء الله مرمى ولو لم يكن الحق وراءهم محيطاً لأخذ الإنسان من ورائه ؛ فأمن مما يحذره واعتمد على حفظه بما شاهده من أمامه ؛ فحصل له الأمان من أمامه غيباً وشهادة وحصل له الأمان من ورائه إيماناً ؛ فإن أخذ الله من أي ناحية أخذه من مأمنه ، وكذلك أخذ ربك إذا أخذها وهي ظالمة أخذها من ورائها ، وأما الإحاطة العامة فهي الأخذ الكلي وهو قوله تعالى " وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ " البقرة ١٩ من غير تقييد بجهة خاصة ، لكن هو أخذ بتقييد صفة الكفر وليس سوى الستر فأشبه الوراء لأنه لا يدركه الإنسان ؛ فما رأينا أخذ الإحاطة يكون عن شهود أيما ورد " (٢) لقد رأي أن المؤمن محفوظ من أمامه بنفسه ومن خلفه بربه وأن القرى الظالمة تؤخذ من خلفها وهذا غير أخذ الإحاطة الذي هو للكافرين . وهذا كلام مردود على صاحبه من كل اتجاه ؛ فالمؤمن محفوظ من ربه من أمامه وخلفه وعن يمينه وشماله ؛ والأخذ لا يدرك كنهه إلا الله . ويبدو أن "ابن عربي" لم ينتبه إلى السياق " الذي بموجبه يكون فهم اللاحق مستندا إلى فهم السابق وتكمن

(١) د. حنفي محمد شرف - الإعجاز البياني بين النظرية والتطبيق - المجلس الأعلى

للشئون الإسلامية - القاهرة ١٩٧٠ م ص ٢٢٢ .

(٢) الفتوحات المكية - ج ٧ - ص : ٢٨٤ ، ٢٨٥ .

تأويل الشاهد القرآني في كتاب (الفتوحات المكية)

فاعلية السياق النصي أو التركيبي في أنه ينظر إلى النص كليته ... وإذا تعارضت التأويلات فإن أقربها إلى الصواب أكثرها انسجاما مع سياق الخطاب ^(١) ففي الآيتين إخبار عن الكافرين وقد سُبقت الآية الأولى بقوله تعالى ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ "البروج ١٩ الثانية" بقوله تعالى ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْنَائَهُمْ فِي أَذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَزَرَ الْمَوْتِ﴾ البقرة ١٩ وفي الأولى قدم المتعلق (من ورائهم) البروج ٢٠ على الخبر؛ وفي الثانية لم يفصل بين المبتدأ والخبر (والله محيط) البقرة ١٩، والعائد في الأولى على الذين كفروا المكذبين المستمرين في تكذيبهم (في تكذيب) البروج ١٩؛ وفي الثانية جاء التذييل بعد تصوير حال التخبط وعدم الاهتداء. فجاء قوله تعالى "من ورائهم" البروج ٢٠ في الأولى يفيد تتبع أفعالهم وأقوالهم المستمرين فيها بالتكذيب "والإحاطة بهم من ورائهم: مثل لأنهم لا يفوتونه؛ كما لا يفوت فائت الشيء المحيط به ومعنى الإضراب: أن أمرهم أعجب من أمر أولئك لأنهم سمعوا بقصصهم وما جرى عليهم، ورأوا أثار هلاكهم ولم يعتبروا، وكذبوا أشد من تكذيبهم "بل هو" أي بل هذا الذي كذبوا به قرآن مجيد ^(٢) البروج ٢١ فالله سبحانه وتعالى يتتبع أقوالهم وأفعالهم؛ وهو قادر على "أن ينزل بهم ما أنزل بفرعون" ^(٣) وفي الثانية إخبار بوقوع الأخذ والإحاطة "والله محيط" "أحاط السلطان بفلان إذا أخذه أخذا حاصرا من كل جهة ... فالله سبحانه محيط بجميع المخلوقات، أي هي في قبضته وتحت قهره..." ^(٤) فحكم الله بالعقاب

(١) د / مصطفى تاج الدين - النص القرآني ومشكل التأويل - مجلة / إسلامية المعرفة -

مصر - السنة الرابعة - العدد الرابع عشر ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) الكشف - ج ٤ ص : ٧٣٣ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن - مج ١٠ - ص ٢٤٦

(٤) السابق مج ١ - ص : ٢١٤

قد وقع بهم وتحقق فيهم ولا يفيد ما هم فيه من محاولات خلاص وفرار ولن يجدهم نفعاً البحث عن ملاذ آمن أو اهتداء بأي طريق .

- في موازنة بين الأفعال التي وردت في القرآن الكريم لتحقيق إرادة الله في الكون ؛ نجد أن منها ما جاء في سياق أوامر إلهية للمخلوقات مختلفة الأساليب ؛ وهو ما أشار إليه "ابن عربي" في أمر الله تعالى للسماء والأرض في طور تكوينهما بالإتيان فقال لَهَا وَلِلْأَرْضِ "إِنِّي طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ" فصلت ١١ في حين أنه لم يأمر جنهم بالإتيان ؛ وإنما ذكر مجيئها بفعل مبني للمجهول محدد الزمان "يومئذ" "وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ" الفجر ٢٣ . رأى "ابن عربي" أن علة ذلك في الآية الأولى "لأنها علمت أنها إن لم تجب مختارة جبرت على الإتيان فجاء بها كما جاء بهن ؛ وما وصفها الحق بالمجيء من ذاتها وإنما "جاء يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ" الفجر ٢٣ يعني يوم القيامة ؛ وإنما امتنعت من الإتيان حتى جاء بها لما علمت بما هي عليه وما فيها من أسباب الانتقام بالعصاة من المؤمنين ؛ ... فمنعتها الرحمة القائمة بها من الإتيان وأشهدتها تسبيح الخلائق وطاعتهم لله فيجيء بها ليعلم من لا يدخلها ما أنعم الله عليه بعصمته منها ، ويعلم من يدخلها أنه باستحقاق يدخلها فتجذبه بالخاصية إليها جذب المغناطيسي الحديد ... " (١) لقد علل مجيء جهنم القسري بكرهاتها تعذيب العصاة من المؤمنين . وليس هذا كذلك فالله أرحم من مخلوقاته بهم على أنفسهم وعلى غيرهم ؛ ولكن البناء على هذا النسق " هو تمثيل لظهور آيات الله واقتداره وتبيين آثار قهره وسلطانه " (٢) وهو ما يتضح في مشهد المجيء في صحيح مسلم عن "عبد الله بن مسعود" قال : قال رسول الله ﷺ يؤتى بجهنم يومئذ ، لها سبعون ألف زمام ، مع كل

(١) الفتوحات المكية - ج ٧ - ص ٣٠٥ .

(٢) الكشف ج ٤ ص ٧٥١ .

تأويل الشاهد القرآني في كتاب (الفتوحات المكية)

زمام سبعون ألف ملك يجرونها" (١) فهو مجيء قهري يتناسب مع أصحابها العصاة في حين أن إتيان السموات والأرض بما فيها من المنافع والمصالح كان طوعا لما فيهما من التسخير للبشر "كانتا في ذلك كالمأمور المطيع إذا ورد عليه الأمر المطاع ؛ وهو من المجاز الذي يسمى التمثيل . ويجوز أن يكون تخييلا ويبنى الأمر فيه على أن الله تعالى كلم السماء والأرض وقال لهما : ائتيا شئتما ذلك أو أبيئتماه ؛ فقالتا ، أئتنا على الطوع لا على الكره . والغرض تصوير أثر قدرته في المقدورات لا غير ، من غير أن يحقق شيء من الخطاب والجواب ... " (٢) فهو مجيء طاعة وارتضاء لما سخرتا له . من جانب آخر نجد أن من رأى الفرق في نسق البنية ؛ فخالف بين المجيء والإتيان تبعا لتركيب كل منهما في السياق ومعناه ؛ إذ المجيء أكثر ما يدل على محسوس ؛ في حين أن الإتيان متعلق بالمعاني ؛ فمع العذاب جاء لفظ المجيء ، لأن العذاب مرئي يشاهدونه (٣) ، وفي هاتين الآيتين إظهار لرحمة والله ولطفه بعباده ؛ إذ طوع الأرض للخلق وبسطهما لهم منذ بدء الخليقة؛ وخرن جهنم إلى يوم الحساب .

- في سياق آخر حاول "ابن عربي" أن يكشف فروق الدلالة في قوله تعالى " وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ "البينة" وقوله تعالى "قُلِ اللَّهُ

(١) أخرجه مسلم في كتاب : حر نار جهنم وبعد قعرها - ط دار إحياء الحديث - بيروت -

ت / محمد فؤاد عبد الباقي ٤ / ٢١٨٤

(٢) الكشف ج٤ ص ١٨٨ . ويتضح في قوله أثر الفكر المعتزلي إذ جعل الكلام على سبيل

المجاز . وقول الجمهور : لهما فيها وجهان : أحدهما : أنه قول تكلم به والثاني : أنها

قدرة ظهرت لهما فقام الكلام مقام بلوغ المراد " الجامع لأحكام القرآن مج ٨ -

ص : ٢٩١

(٣) الزركشي - البرهان في علوم القرآن - دار الفكر ج٤ - ص ٨١ .

أَعْبُدْ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي "الزمر ١٤" فأشار إلى أن في الأولى " ما تعبدّهم به " (١) وفي الثانية " ما تعبد به في هذا الموضع " (٢) وإن كان هذا إجمال في القول ؛ فإن في تفصيل ذلك ما أورده علماء آخرون ؛ فرأوا أن في قوله تعالى "مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ" أي العبادة ... وفي هذا دليل على وجوب النية في العبادات ، فإن الإخلاص من عمل القلب ؛ وهو الذي يراد به وجه الله لا غيره " (٣) وقد أشار الزمخشري إلى أن الآية الأولى "إخبار بالأمر" ؛ والثانية "إخبار بالاختصاص" ، وضح ذلك ضمن تفريقه بين قوله تعالى " ...أَعْبُدْ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ {الزمر ١١} و" قُلِ اللَّهَ أَعْبُدْ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي "الزمر (٤) ١٤ والدليل على الاختصاص في الثانية أنه قدم المعبود " لفظ الجلالة " في الثانية؛ وأخره في الأولى ، وأضاف إلى الدين ضمير المتكلم وجعل " الدين " في الأولى "معرفاً بـأل " فهو الدين المخلص من كل شوب ؛ فذلك بعينه "دين القيمة "وهو الملة الحنيفية من لدن" آدم " إلى يومنا هذا القائم على التوحيد وسلوك الطريق المستقيم .

- تمتد براعة اللفظة القرآنية في موضعها من السياق بتمكنها الدلالي وجوانب أخرى من المناسبة؛ كجمال اللفظة؛ وروعة جرسها الصوتي ؛ وبديع

(١) الفتوحات المكية ج ٦ ص : ٢٥١

(٢) السابق نفسه

(٣) الجامع لأحكام القرآن - مج ١٠ - ص ٣٧٩ .

(٤) يقول : فإن قلت : ما معنى التكرار في قوله تعالى "قُلِ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ "الزمر ١١" وقوله تعالى "قُلِ اللَّهَ أَعْبُدْ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي "الزمر ١٤" قلت : ليس بتكرير لأن الأول إخبار بأنه مأمور من جهة الله بإحداث العبادة والإخلاص والثاني : إخبار بأنه يختص الله وحده دون غيره بعبادته مخلصاً له الدين " الكشف - ج ٤ - ص :

تأويل الشاهد القرآني في كتاب (الفتوحات المكية)

صورتها وجودة اشتقاقها ؛ ويمكن أن نعد كل ما سبق من مكونات التشكيل البنائي، وقد ورد في مواضع متعددة من القرآن ؛ ومن ذلك ما جاء فيما استشهد به "ابن عربي" لتوضيح الفرق بين اقتراب الله من العبد واقتراب العبد لله ففي قوله تعالى " فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ " المائدة ٥٤ فقدم محبته إياهم على محبتهم إياه ^(١) وقال : "أَجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ" البقرة ١٨٦ ففعل الله أسبق وفعل الإنسان قد تعرقله النوازع والأهواء فيحتاج إلى مجاهدة " فقدم إجابته لنا إذا دعونا على إجابتنا له إذا دعانا ، وجعل الاستجابة من العبيد لأنها أبلغ من الإجابة ؛ فإنه لا مانع له من الإجابة سبحانه فإنه لا فائدة للتأكيد ، وللإنسان موانع من الإجابة لما دعا الله إليه وهي : الهوى ، والنفس ، والشيطان ، والدنيا ، فلذلك أمر بالاستجابة ، فإن الاستفعال أشد في المبالغة من الإفعال وأين الاستخراج من الإخراج ^(٢) وقد جاء فعل الاستجابة مقترنا "بلام الأمر" مشيرا إلى الاستدعاء الإلهي المؤكد استنهاضا لهمة من تراخي في استقبال الدعوة .

- تطرق "ابن عربي" إلى وصف القرآن للأنبياء بصفات عليا منها الصلاح، ووازن بين ذكرها مطلقة من الزمانية وتقييدها بيوم القيامة ، وأراد على طريقته أن يعلل ذلك؛ فقال " فمنهم من شهد له بها الحق عز وجل بشرى من الله فقال في عبده يحي عليه السلام " وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ " آل عمران ٣٩ وقال في نبيه "عيسى عليه السلام" وَيَكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ

(١) أشار الزمخشري إلى أن هذا البناء هو من "المجاز الذي يسمى فيه المسبب باسم السبب والمجاز الذي لا يعدل إليه عن الحقيقة إلا بعد تعذرهما ؛ فليمتحن حقيقة المحبة لغة بالقواعد لينظر أهى ثابتة للعبد متعلقة بالله تعالى أم لا ؛ إذ المحبة لغة : ميل المتصف بها إلى أمر ملذ أو اللذات الباعثة على المحبة " الكشف - ج ١ ص ٦٤٦ .

(٢) الفتوحات المكية - ج ١ ص : ٢٩١ .

الصَّالِحِينَ" آل عمران ٤٦ " وقال في "إبراهيم عليه السلام" "وإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ" البقرة ١٣٠ من أجل الأمور الثلاثة التي صدرت منه في الدنيا؛ وهي عن زوجته سارة أخته بتأويل وقوله " فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ " الصافات ٨٩ اعتذارا وقوله " بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ " الأنبياء ٦٣ إقامة حجة ، فبهذه الثلاثة يعتذر يوم القيامة للناس إذا سألوه أن يسأل ربه فتح باب الشفاعة فلهذا ذكر صلاحه في الآخرة إذ لم يؤاخذ به بذلك ... أما سليمان وأمثاله عليهم السلام فأخبرنا الحق أنه قال " ﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ " النمل ١٩ وإن كانوا صالحين في نفس الأمر عند الله فهم بين سائل الصلاح ومشهود له به ...^(١) . في النص السابق إشارة إلى اختصاص "إبراهيم عليه السلام" بالصلاح في الآخرة دون ذكر الدنيا ؛ وهذا مردود عليه من وجوه عدة منها؛ أولا : أنه اقتطع القول من سياق الآية ﴿ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ البقرة ١٣٠ "أي اخترناه للرسالة فجعلناه صافيا من الأنداس " ^(٢) فالاصطفاء كلمة جامعة لكل معاني الخير والصلاح والتطهير "وهو ما يتناسب مع مقامه وبه يتحدد المعنى ؛ فالمعنى بدون المقام متعدد ... محتمل ؛ لأن المقام كبرى القرائن ولا يتعين إلا بقرينة " ^(٣) . ثانيا: إن من العلماء من رأى في القول تقديم وتأخير " مجازه . ولقد اصطفيناه في الدنيا والآخرة وإنه لمن الصالحين " ^(٤) ثالثا : هذا كلام لا يليق بمقام نبي الله وخليفه وهو سقوط منه إذ أخذ اللفظ على ظاهره دون التنبيه إلى بلاغة القرآن في الذكر والحذف والتأخير ؛ كما لم ينتبه إلى دلالات لفظ "الصلاح"

(١) الفتوحات المكية - ج ١ - ص ٣٤٩ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن - مج ١ - ج ٢ ص: ٥٤٠

(٣) د تمام حسان - اللغة العربية معناها ومبناها - ط ٤١ - الهيئة المصرية للكتاب -

١٩٧٩ ص ٣٩ .

(٤) السابق نفسه

تأويل الشاهد القرآني في كتاب (الفتوحات المكية)

وتتوعها بين موضع وآخر ^(١) . أرى أن في ذكر لفظ "الصلاح" في الآخرة لإبراهيم - عليه السلام - بشارة عاجلة في الدنيا إتباعاً للفضل الذي من الله به عليه المذكور في الآية ؛ وفي هذا إظهار لمنزلته الرفيعة في الدنيا والآخرة .

- من مشكلات التأويل النظري عند ابن عربي " أنه في كثير من المواضع يأخذ اللفظ على ظاهره ؛ ولا يقف على مستويات الدلالة عند اللفظة الواحدة؛ فـ " كل حرفين أوقعتهما العرب على معنى واحد في كل واحد منهما معنى ليس في صاحبه ؛ ربما عرفناه وأخبرنا به ؛ وربما غمض علينا " ^(٢) وهو ما يظهر جليا في تفريقه بين سياق مخاطبة الله تعالى لنبيه "محمد" ﷺ في قوله تعالى ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ الأنعام ٣٥ و"نوح" - عليه السلام - في قوله تعالى ﴿ إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ هود ٦٤؛ فرأى مزيدا من الترفق مع نوح - عليه السلام - إذ نهاه بلفظ " أعظك " في جملة إخبارية لفظا إنشائية معنى ، في حين أن النهي جاء صريحا في خطابه لرسول الله ﷺ وقد علل ذلك بقوله " خاطبه بمثل هذا الخطاب لحدائث سنه وقوة شبابه فقابله بخطاب قوي في النهي عن ذلك ، وقال تعالى لنوح عليه السلام لما لم يكن

(١) قوله تعالى " وإنه في الآخرة لمن الصالحين " الصالح في الآخرة هو الفائز ؛ ثم قيل : كيف جاز تقديم " في الآخرة " وهي داخل في الصلة ؛ قال النحاس : فالجواب أنه ليس التقدير إنه لمن الصالحين في الآخرة ؛ فتكون الصلة قد تقدمت ، ولأهل العربية فيه ثلاثة أقوال : منها أن يكون المعنى وإنه صالح في الآخرة ثم حذف ؛ وقيل " في الآخرة " متعلق بمصدر محذوف ؛ أي صلاحه في الآخرة والقول الثالث : أن " الصالحين " ليس بمعنى الذين صلحوا ؛ ولكنه اسم قائم بنفسه ؛ كما يقال : الرجل والغلام ... وقول رابع أن المعنى وإنه في عمل الآخرة لمن الصالحين ؛ فالكلام على محذوف مضاف " السابق نفسه .

(٢) أبو بكر الأنباري - الأضداد - ت : محمد أبو الفضل إبراهيم - دائرة المطبوعات

والنشر - الكويت - ص : ٧

في قوة الشباب؛ وكان قد شاخ وحصل في العمر الذي لا يزال فيه محترماً مرفوقاً به في العرف والعادة " إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ " ففرق في الخطاب حين وعظه ، فإنه لا بد من الفرق بين خطاب الشباب والشيوخ ^(١).
لقد فرّق العلماء بين دلالة "الجاهل" في الآيتين فجاء في الجامع لأحكام القرآن أن معناها في خطابه نبيه ﷺ " أي من الذين اشتد حزنهم ؛ وتحسروا حتى أخرجهم ذلك الجزع الشديد إلى ما لا يحل ، أي لا تحزن على كفرهم فتقارب حال الجاهلين " ^(٢) وفي هذا بيان على حرص محمد - صلى الله عليه وسلم - على قومه وتهالكة لإيصالهم إلى الدين الحق ؛ فكان النهي هنا للتسلية؛ فإنه لا يستطيع ذلك إلا أن يشاء الله . أما ما ورد في خطاب نوح عليه السلام فهو نهى عن سؤال " أي أحزرك لئلا تكون ؛ وكراهة أن تكون من الجاهلين أي الآثمين ... وقيل المعنى أرفعك أن تكون من الجاهلين ، قال "ابن العربي" ^(٣) : وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحاً عن مقام الجاهلين ويعليه بها إلى مقام العلماء العارفين ^(٤) فنوح قد سأل ما ليس له به علم فـ " جعل سؤال ما لا يعرف كنهه جهلاً ... ووعظه أن لا يعود إليه وإلى أمثاله من أفعال الجاهلين " ^(٥) ولهذا القول وجاهته نظراً لكونه راعى سياق المقام إذ " المعنى الدلالي يعتمد في تكوينه على عنصرين : معنى المقال :

(١) الفتوحات المكية ج ٣ ص ٥٣٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن - مج ٣ - ص : ٧٣٢

(٣) "أبو بكر عبد الله بن محمد المغامزي الأشبيلي المالكي المشهور بابن العربي ولد بأشبيلية ٤٦٨ هـ - وهو من أكبر علماء وفقهاء الأندلس ؛ تولى القضاء بأشبيلية مدة غير قصيرة ؛ وكانت وفاته بمدينة فاس عام ٥٤٣ هـ ومن مؤلفاته الكثيرة أحكام القرآن "الزركلي - الأعلام - دار العلم للملايين - بيروت - ج ٦ - ص ٢٣٠ .

(٤) السابق - مج ٥ - ص : ٤٦ .

(٥) الكشف - ج ٢ ص : ٤٠٠ .

== تأويل الشاهد القرآني في كتاب (الفتوحات المكية) ==

وهو المعنى الحرفي أو المعنى الظاهري للنص ؛ ومعنى المقام : وهو مكون من ظروف آداء المقال ؛ وهي التي تشتمل على القرائن الحالية ^(١) والجملة في النص " لا تفهم في حد ذاتها فحسب ؛ وإنما تسهم الجمل الأخرى في فهمها ، وهذا يبين أن الجملة ليست وحدها التركيب الذي نحدد به المعنى ؛ وإنما نحدد المعنى أساسا من خلال النص الكلي الذي تتضامن أجزاؤه وتتأثر ^(٢) وهو ما حقق اختلاف الدلالة للفظ واحد.

- نظر " ابن عربي " إلى صور "الإضافات" في القرآن الكريم ؛ موازنا كطريقته بين أنماط الأبنية ؛ للكشف عن أسرار إعجازها ؛ من أمثلة ذلك ما أورده مما أضيف إلى " أرض " في قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ النساء ٩٧ وقوله تعالى ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةً فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴾ العنكبوت ٥٦ ورأى أن الإضافة في الثانية أقوى دلالة من الأولى " فأضافها إليه أشد إضافة من قوله ﴿ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً ﴾ العنكبوت ٥٦ ؛ وكذلك أضاف العلماء إليه إضافة الأرض إضافة اختصاص وكذلك أضافهم في الأمر بالعبادة إليه فقال " فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ " وقال في غير هذا الموطن ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ النحل ٣٦ و ﴿ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾ الحج ٧٧ فمن عرف قدر هذه الإضافة إلى المتكلم وعرف قدر ما بين الإضافتين وإن كان المقصود بالعبادة واحدا ^(٣) ورأى أن الفرق بين الإضافتين علاقة اختصاص " فضيق في توسعه إلى إضافتهم إلى المتكلم ،

(١) د نور الهدى لوشن - علم الدلالة دراسة وتطبيقا - منشورات جامعة قاريونس -

بنغازي - ص ٩٧

(٢) د سعيد البحيري - علم لغة النص ؛ المفاهيم والاتجاهات - ط / لونجمان - ١٩٩٧ -

ص ١٤٠ .

(٣) الفتوحات المكية - ج ٥ ص : ٣٦٥ .

ووسع في إضافتهم إلى الاسم ^(١) ؛ فهناك بون في الخطاب بين " لم يكونوا على شيء من الدين ؛ حيث قدروا على الهجرة ولم يهاجروا ؛ فقالوا : كنا مستضعفين اعتذارا مما نجوا به واعتلالا بالاستضعاف ؛ فبكتهم الملائكة بقولهم " أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا النساء ٩٧" ^(٢) فالمتكلم الملائكة توبيخا واستنكارا لبقائهم في أرض الكفر مستضعفين فأُسندت الهجرة إلى أرض الله التي اتسعت لكل بر وفاجر ومؤمن وكافر أما عباد الله المخلصين فقد خصهم بخطابه واختصهم بإضافة الأرض إليه ؛ وتقديم المفعول على الفاعل لإفادة التخصيص لهم في الإخلاص له لأن المعنى " إن أرضي واسعة فإن لم تخلصوا العبادة لي في أرضي فأخلصوها لي في غيرها " ^(٣) . إن إضافة العباد إليه - سبحانه وتعالى - إضافة تشريف وحفظ ليس في هذه الآية فقط وإنما في كل موضع من القرآن " فالمضاف إليه من عباده الذين هم عباده وهم الذين لا سلطان لمخلوق عليهم في الآخرة ... وما تجد في القرآن مضافين إليه سبحانه إلا السعداء خاصة ، وجاء لفظ غيرهم بالعباد ... " ^(٤) فهو تخصيص إلهي ؛ وتمييز بين عباده بدال واحد مع تغيير إضافته.

- نمط آخر من أنماط الإضافة يظهر في الإضافة إلى الظرف " عند " فأضيف إليه لفظ الجلالة ؛ وضمير الجمع و ضمير الغائب العائدين إلى لفظ الجلالة وأسند أيضا إلى الخلق ، وقد نظر " ابن عربي " إلى الفرق بين عندية الله وعندية الخلق يقول " قال تعالى " مَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ " النحل ٩٦ وقال " وَعَلَّمَانَاهُ

(١) السابق نفسه

(٢) الكشف ج ١ ص : ٥٥٥

(٣) الكشف ج ٣ ص ٤٦١

(٤) الفتوحات المكية - ج ١ ص ٢٩٩ .

تأويل الشاهد القرآني في كتاب (الفتوحات المكية)

من لَدُنَّا عِلْمًا الكهف ٦٥ ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ الأنعام ٥٩ ... قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ لقمان ٣٤ وقال تعالى ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ الحجر ٢١ فاختلفت إضافات هذه العندية باختلاف ما أضيف إليه من اسم وضمير وكناية ؛ وهي ظرف ثالث ما رأيت من أهل الله من تنبّه له حتى يعرف ما هو ؛ فإنه ليس "بظرف زمان" ولا "ظرف مكان" مخلص بل هو ظرف مكانة جملة واحدة على الإطلاق ، وكذلك هو في قوله تعالى "مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ" النحل ٩٦ فجعل لنا عندية ماهي "ظرف مكان" في حقا ؛ فعجبت من العلماء كيف غفلوا عن تحقيق هذه العندية التي اتصف بها الحق والإنسان ، ثم إن الله جعل عنديته ظرفا لخزائن الأشياء ، ومعلوم أنه يخلق الأشياء ويخرجها من العدم إلى الوجود ، وهذه إضافة تقتضي بأنه يخرجها من الخزائن التي عنده ؛ فهو يخرجها من وجود لا ندركه إلى وجود ندركه ... فخزائنها أعني خزائن الأشياء التي أوعيتها المخزونة فيها إنما هي إمكانيات الأشياء ليس غير ذلك لأن الأشياء لا وجود لها في أعيانها بل لها الثبوت والذي استفادته من الحق الوجود العيني فتفضلت للناظرين ولأنفسها بوجود أعيانها ، ولم تنزل مفصلة عند الله تفصيلا ثبوتيا ، ثم لما ظهرت في أعيانها وأنزلها الحق من عنده أنزلها في خزائنه^(١) . نلاحظ في النص السابق استحداث "ابن عربي" لظرف ثالث سماه "ظرف مكانة" جعله لما هو موجود في الوجود الغيبي "خزائن الله" فإن ظرف الزمان أو المكان "عند" لما هو موجود بالفعل ولو زال لزال الظرفية ، وليس ما عند الله كذلك ؛ فهو أمر مقرر ليس موجودا عينا ؛ فإذا شاء سبحانه أخرجه من وجود ما لا ندركه إلى وجود ما ندركه فأصبح "عند" وعلل ذلك بأن عندية الله لا تنزل ولا تحول؛ فإن ما يقدره الله للخلق تنزل صورته وتبقى عنديته في خزائن

(١) الفتوحات المكية ج ٥ ص ٢٨٦.

الحق لا تزول أبداً ، فما عند الله في خزائنه هي ممكنات حيثما شاء جعلها مدركات عند الخلق ؛ ومن هنا اختلفت عندية الحق عما عند الخلق .

- في تركيبين مختلفين ورد ذكر لفظ "الكتاب" إشارة إلى كتاب الله ، ولكل تركيب سره وإفادته وإن كان المشار إليه لفظ واحد فـ "إذا أورد الحكيم تقدست أسماؤه آية على لفظة مخصوصة ؛ ثم أعادها في موضع آخر من القرآن ؛ وقد غير فيها لفظة كما كانت عليه في الأولى ؛ فلا بد من حكمة هناك تطلب ؛ فإذا أدركتموها فقد ظفرتم وإن لم تدركوها فليس لأنه لا حكمة هناك ؛ بل جهلتم" (١) ؛ وهو ما نبه إليه "ابن عربي" في قوله " فإن الله تعالى لما أشار إلينا في القرآن العزيز إلى ما أنزله علينا تارة أوقع الإشارة إلى عين الكتاب فقال "ذَلِكَ الْكِتَابُ" البقرة ٢ ؛ وتارة أشار إلى آياته وقال " تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ" يونس ١ فتارة ترك الإشارة وتارة ذكر الإشارة ؛ ولكل حكم من هذه الأحكام فهم منا يخصه لا بد من ذلك" (٢) . إن ثمة فرق بين الإشارة إلى الكتاب مباشرة وإلى الآيات في موضع آخر وإضافة الكتاب إليه ، وهو لم يحدد الفرق في مؤلفه هذا ؛ ولكنه ذكره في التفسير المنسوب إليه (٣) فيرى في قوله تعالى "ذَلِكَ الْكِتَابُ" البقرة ٢ أنه أراد صورة الكل المشتملة على كل

(١) الخطيب الإسكافي - درة التنزيل وغرة التأويل في بيان المتشابهات في كتاب الله العزيز - دار الآفاق الجديدة - بيروت - ص : ٢٠ ، ٢١ .

(٢) الفتوحات المكية - ج ٦ ص : ٢٤٧ .

(٣) طبع على هامش عرائس البيان في حقائق القرآن لأبي محمد بن أبي النصر الشيرازي الصوفي ... ويرى البعض أن هذا التفسير من عمل ابن عربي ؛ ... والبعض الآخر لا يصدق أن هذا التفسير من عمل ابن عربي ؛ بل يرى أنه من عمل عبد الرزاق القاشاني ؛ وإنما نسب لابن عربي تروجيا له بين الناس " التفسير والمفسرون ج ٢ ص ٢٩٥ .

تأويل الشاهد القرآني في كتاب (الفتوحات المكية)

شيء أي المحتوي على كل ما كان وما يكون وفي قوله تعالى " تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ " يونس ١ يشير إلى تلك الآيات المذكورة في هذه السورة (١) .

- ورد في القرآن الكريم ذكر الله - تبارك وتعالى - بأسمائه وصفاته وهو واحد لا شريك له وهذا ما جهله أهل الكفر فقد عرفوا الله وما عرفوا اسم الرحمن ، وكان هذا من أسباب إنكارهم النبوة يقول " ابن عربي " " ثم انظر في شهادة الله عز وجل عند نبيه ﷺ في حق المشركين ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ لقمان ٢٥ فهو تنبيه عجيب ولما قيل لهم " اسجدوا للرحمن " الفرقان ٦٠ وما رأوا له عينا ولا يعلمونه إلا مسمى الله ولم يعلموا أنه عين مسمى الرحمن فتخيلوا في الرحمن أنه شريك الله فأنكروا ذلك ولم ينكروا ذلك فيمن نصبوه إلها على ما قررناه لأنهم عالمون بأسماء من نصبوهم آلهة من دون الله فعلموا بأسمائهم أنهم ليسوا في الحقيقة في الألوهية مثله؛ فإن له عندهم توحيد العظمة والكبرياء. ودلهم بالسجود على عبادة غيب فقالوا ﴿ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ الفرقان ٦٠ ؛ لأنهم ما علموا في الغيب إلا إلها واحدا فقال لنبيه ﷺ ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ "الإسراء ١٠ افتعجبوا

(١) تفسير "ابن عربي" ط صادر - بيروت ج ١ ص ١٠ . وقد ورد في الجامع لأحكام القرآن مج ١ - ج ١ ص ١٥٨ - ١٥٩ " ذلك الكتاب " إشارة إلى القرآن ... وقيل هو على بابه إشارة إلى غائب على عشرة أقوال فقل ذلك الكتاب : أي الكتاب الذي كتبت على الخلق بالسعادة والشقاوة والأجل والرزق لا ريب فيه ... وقيل إلى ما نزل بمكة ... وقيل إن "ذلك" إشارة إلى ما في التوراة والإنجيل ... والتقدير هذا الكتاب المفسر في التوراة والإنجيل ؛ يعني أن التوراة والإنجيل يشهدان بصحته ... وذلك إشارة إلى القرآن الذي نزل من السماء ولم ينزل بعد ... " وأشار إلى أن "تلك آيات الكتاب ابتداء وخبر أي تلك التي جرى ذكرها ... والمراد القرآن وهو أولى بالصواب ... السابق مج ٤ ج ١١ ص : ٦١٤ .

من ذلك غاية التعجب لأنهم تخيلوا أن مسمى الرحمن ليس هو مسمى الله ... وذلك أعمى بصائرهم وكثف أعطيتهم فلم يعقلوا عن الله بما أراد بما نزله في حقهم ...^(١) . فهذا تنبيه إلهي لعباده بأنه تعالى يخاطبهم بمستويات متنوعة من الخطاب ؛ فقد يخاطبهم بالذات والصفات ، وقد يخاطبهم بالإفراد والجمع ؛ وقد رصد "ابن عربي" من الآيات ما جاء في هذا الصدد ؛ محاولا الكشف عن أحد أسرار ذلك التنوع فيقول " قال الله عز وجل ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ ق ١٦ وقال ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ الحديد؛ فكان بهويته معنا ، وبأسمائه أقرب إلينا منا ؛ فإن الحق إذا جمع نفسه مع أحديته فلأسمائه من حيث ما تدل عليه من الحقائق المختلفة ، وما مدلولها سواء ؛ فإنها ومدلولاتها عينه وأسماءه ؛ فلا بد أن تكون الكناية عن ذلك في عالم الألفاظ والكلمات بلفظ الجمع مثل "نحن" و"إنا" بكسر الهمزة وتشديد النون مثل قوله ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ القمر ٤٩ " ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ الحجر ٩ . وقد تفرد إذا هو أراد هويته لا أسماءه؛ مثل قوله ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ﴾ طه ١٤١... وإذا كان الأمر على ما ذكره عن نفسه ... صح الجمع في لفظة "إنا" و"نحن" ، وإذا لم يكن عين القوى والموجودات إلا هو صح الإفراد ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ ﴾ طه ٤؛ والهو والأنت وضمير المفرد بالخطاب ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ الفاتحة وأمثال ذلك ، فأفرد نفسه في جمعيتنا " وَهُوَ مَعَكُمْ " الحديد؛ وجمع نفسه في أحديتنا في قوله " ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ فأفرد الضمير العائد على الإنسان فلم يكن الجمع إلا بنا ولا الواحد العين إلا به ...^(٢)) فأخبار الله يكون بذاته وصفاته وبالإفراد والجمع.

(١) الفتوحات المكية ج ٦ ص ٢٦ .

(٢) الفتوحات المكية ج ٦ ص ٣٤٢ ، ٣٤٣ .

== تأويل الشاهد القرآني في كتاب (الفتوحات المكية) ==

- أمر الله الخلق أن يتدبروا خلقه وينظروا في قدرته ليزداد الإيمان ويتحقق المعرفة ؛ وقد انقسم هذا النظر في القرآن إلى نوعين -على قول "ابن عربي" - "اعتباري" وآخر "استدلالي" وهو الصورة الأوسع التي تحتاج منا إلى التأمل في الغيب والشهادة " أما قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ﴾ (١) الفيل ١ ، وأطلق النظر على الكيفيات فإن المراد بذلك بالضرورة المكيفات لا التكيف ؛ فإن التكيف راجع إلى حالة معقولة لها نسبة إلى المكيف وهو الله تعالى ، وما أحد شاهد تعلق القدرة الإلهية عند إيجادها ، قال تعالى ﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ الكهف ٥١ فالكيفيات المذكورة التي أمرنا الله بالنظر إليها لا فيها إنما ذلك لنتخذها عبرة ودلالة على أن مَنْ كيفها أي صيرها ذات كيفيات ؛ وهي الهيئات التي تكون عليها المخلوقات المكيفات فقال تعالى ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ الغاشية ١٧ ، ١٨ ، ١٩ . وغير ذلك ، ولا يصح أن ننظر إلا حتى تكون موجودة ؛ فننظر إليها وكيف اختلفت هيئاتها، ولو أراد بالكيف حالة الإيجاد لم يقل انظر إليها فإنها ليست بموجودة ، فعلمنا أن الكيف المطلوب منا في رؤية الأشياء ما هو ما يتوهم من لا علم له بذلك، ألا تراه سبحانه لما أراد النظر الذي هو الفكر قرنه بحرف " في " ولم يصحبه لفظ " كيف " فقال تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (٢) الأعراف ١٨٥ . المعنى : أن يفكروا في

(١) في الجامع لأحكام القرآن مج ١٠ - ج ٣ ص : ٤١٨ ورد أن المعنى : أي ألم تخبر ، وقيل : ألم تعلم وقال ابن عباس ألم تسمع ، واللفظ للاستفهام والمعنى تقرير ، والخطاب للنبي ﷺ ولكنه عام .

(٢) الاستدلال في ملكوت السموات والأرض فيما تدلان عليه من عظم الملك . والملكوت : الملك العظيم ما خلق الله من شيء وفيما خلق الله مما يقع عليه اسم الشيء من أجناس لا يحصرها العدد ولا يحيط بها الوصف " الكشاف - ج ٢ ص : ١٨١ .

ذلك فيعلموا أنها لم تقم بأنفسها وإنما أقامها غيرها ؛ وهذا النظر لا يلزم منه وجود الأعيان مثل النظر الذي تقدم ، وإنما الإنسان كلف أن ينظر بفكره في ذلك لا بعينه ؛ ومن الملكوت ما هو غيب وما هو شهادة ، فما أمرنا قط بحرف " في " إلا في المخلوقات لا في الله ...^(١) . فيما سبق يتضح الفرق أيضا بين دلالة حرفي الجر " في " و " إلى " ؛ فاستدلال يكون بحرف الجر " في " ولا يقترن بـ " كيف " والاعتبار الذي هو للأعيان يكون متعلقه حرف الجر " إلى " . وقد نظر "ابن عربي " فيما جاء على هذا النسق البنائي مثل قوله تعالى " أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ " الفرقان ٤٥ : مستدلا على صحة ما سبق ؛ فلأن الرؤية هنا اعتبارية ؛ إذ الدعوة إلى النظر في خلق الله " فقرن الرؤية بإلى ؛ وجعل المرئي بكيف^(٢) ؛ فيقول صاحب المنع : لما لم تشهد هنا ذات الحق ؛ وهو يكيف مد الظل ولا رأيناه وإنما رأينا مد الظل على الأشخاص الكثيفة التي تحجب الأنوار أن تبسط على الأماكن التي يمتد فيها ظلال هذه الأشخاص ، علمنا أن الرؤية في هذا الخطاب إنما متعلقها العلم بالكيف المشهود الذي ذكرناه ...^(٣) ويؤكد ذلك اكتمال الرؤية بقوله تعالى ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ الفرقان ٤٦ : " وهو رجوع الظل إلى الشخص الممتد ببروز النور حتى يشهد ذلك المكان ، فجعل المقبوض إنما كان قبضه إلى الله لا إلى الجدار ، وفي الشاهد وما تراه العين أن سبب انقباض الظل وتشميره إلى جهة الكثيف إنما هو بروز النور " ^(٤) الذي هو

(١) الفتوحات المكية ج ١ ص : ٢٩٦ ،

(٢) تقدير الكلام " ألم تر إلى صنع ربك ألم تنظر إلى صنع ربك " الكشف ج ٣ ص : ٢٨٢ . ويجوز أن تكون الرؤية من طلب العين ويجوز أن تكون من طلب العلم " الجامع

لأحكام القرآن مج ٧ ص : ٣٧ .

(٣) الفتوحات المكية - ج ٤ ص ٣٥٤ .

(٤) السابق نفسه

== تأويل الشاهد القرآني في كتاب (الفتوحات المكية) ==

ضوء الشمس " فالظل مكثه في هذا الجو بمقدار طلوع الشمس ؛ فإذا طلعت الشمس صار الظل مقبوضا ، وخلفه في هذا الجو شعاع الشمس ؛ فأشرق على الأرض وعلى الأشياء إلى وقت غروبها ، فإذا غربت فليس هناك ظل ، وإنما ذلك بقية نور النهار ، وقال قوم بغروب الشمس لأنها ما لم تغرب فالظل فيه بقية ^(١) . إن رؤية " ابن عربي " - فيما سبق - جاءت من نظرية كلية لكتاب الله فأدرك مفاهيم الجزئيات " إن هذه الأبنية الكبرى وفق طبيعتها الدلالية ؛ لذلك تتمثل البنية الدلالية لنص ما ... من الأبنية الكبرى ... وبذلك يمكن أن يُشكّل تتابع كلي أو جزئي " ^(٢) .

- اشتمل القرآن الكريم على قيم رفيعة ؛ منها الإسناد إلى الفاعلين بما يليق وهو ما أطلق عليه "ابن عربي" "أدب الإضافة" ومثل له بحديث "الخضر" ومن خلاله ورازن بين فروق الإسناد إلى الفاعل الواحد على نسق بنائي واحد فيكتسب دلالة معاكسة أو مختلفة؛ يتضح ذلك في قوله تعالى "فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا" الكهف ٧٩ ، وقوله " فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا " الكهف ٨١ وقوله " فَأَرَادَ رَبُّكَ " الكهف ٨٢ ، لتخليص المحمّدة فيه ؛ فيكتسب الشيء الواحد بالنسبة ذما وبالإضافة إلى جهة أخرى حمدا ؛ وهو عينه وتغيّر الحكم بالنسبة ^(٣) أراد أنه لما كان الفعل كله شرا " خرق السفينة " أسنده إلى نفسه، ولما كان يجمع بين الذم " قتل الغلام " و المحمّدة " أن يبديلها ربهما " فجعل الضمير يعود على الاسم الإلهي بما كان في ذلك القتل من الرحمة بالأبوين وبالغلام ؛ وعليه بقتل نفس زكية بغير نفس ؛ فظاھرہ جور فشرک في

(١) الجامع لأحكام القرآن - مج ٧ ص : ٣٧

(٢) د / سعيد بحيري (مترجم) علم لغة النص - مدخل متداخل الاختصاصات - دار

القاهرة - ٢٠٠٥ - ط ٢ ص ٧٥ .

(٣) الفتوحات المكية - ج ٤ ص : ١٦٥ .

الضمير بينه وبين الله " (١) ... ولما كان خيرا كله (إصلاح الجدار واستخراج الكنز) أسنده إلى الله وهو من رفيع الأدب والحديث عن رب العزة (٢) .

- ومن هذا الباب أيضا تأدب إبراهيم عليه السلام " ثم أنه سبحانه عرفنا بأهل الأدب ومنزلتهم من العلم فقال عن إبراهيم خليله أنه قال ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ الشعراء ٧٨ ، ٧٩ ولم يقل يجوعني ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ الشعراء ٨٠ ولم يقل أمرضني ... فأضاف الشفاء إليه والمرض إلى نفسه وإن كان الكل من عند الله ؛ ولكنه تعالى هو أتب رسله إذ كان المرض لا تقبله النفوس ... " (٣) ثم نلاحظ أن الإخبار جاء بالاسم الموصول " الذي " ومع هذا القصد فإن الظاهر في اللفظ إزالة حكم الاسم الإلهي الذي أمرضه ؛ فلما علم الخليل عليه السلام هذا القدر نادى ذلك الاسم الذي أمرضه بقوله ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ " الشعراء ٨٢ ... فجمع هذا العارف بين أدب المسألة وأدب نسبة المرض إلى نفسه ؛ وأدب التعريف أن ذلك المرض حكم ذلك الاسم الإلهي من غير تصريح لكن بالتضمين " (٤) ... وهذا ما أدبهم الله به " ومن أصولهم الأدب مع الله تعالى فلا يسمونه إلا بما سمي به نفسه ، ولا يضيفون إليه إلا ما أضافه

(١) السابق ج ٢ - ص : ٢٦

(٢) ورد في الجامع لأحكام القرآن مج ٦ - ص ٣٨ " إن قال قائل كيف أضاف الخضر قصة استخراج كنز الغلامين إلى الله تعالى ؛ وقال في خرق السفينة " فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا " فأضاف العيب إلى نفسه ؟ قيل له : إنما أسند الإرادة في الجدار إلى الله تعالى لأنها أمر مستأنف في زمن طويل غيب من الغيوب فحسن أفراد هذا الموضع بذكر الله تعالى ، وإن كان الخضر قد أراد ذلك فالذي أعلمه الله تعالى أن يريده " .

(٣) الفتوحات المكية - ج ١ ص : ٣١٠ .

(٤) السابق ج ٢ - ص : ٢٥

تأويل الشاهد القرآني في كتاب (الفتوحات المكية)

إلى نفسه كما قال تعالى ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ النساء ٧٩ ثم قال ﴿ قُلْ كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ النساء ٧٨ في الأمرين إذا جمعتهما لا تقل من الله فراع اللفظ ^(١).

- نمط آخر من الإعجاز البنائي أن تأتي آيتان على نسق بنائي واحد في موضعين ومضمونين مختلفين ؛ ثم تتفرد كل واحدة باكتمال السياق بما يناسب خصوصية الآية وسياقها ؛ وهو ما نجده في الموازنة بين تركيب الآيتين في قوله تعالى ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ "النور ٢" وقوله تعالى " ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ ﴾ المائدة ٣٨؛ فبداية كل آية ابتداء بموصول وإخبار؛ مع اقترانه بالفاء لشبهه بالشرط ^(٢) من جانب آخر إفصاح عن من تقع عليه العقوبة بالتصريح بالذكر والمؤنث مع تقديم وتأخير له دلالته أيضا ^(٣). إلى هنا اتحاد في الشكل البنائي؛ فإذا تتبعنا حد الجريمة - كما ذكرتهما الآيات نجد خصوصية في التركيب؛ ففي الأولى نهى عن "الرأفة" بهما ؛ وفي الثانية جعل العقوبة "نكالا" ، و حكمة ذلك يوضحها "ابن عربي" في قوله: " فإقامة الحدود في الدنيا ستر فأمر الوالي بإقامة الحد نكالا من الزاني كما هو نكال في حد

(١) السابق ج ١ ص : ٣١٠

(٢) سيبويه - الكتاب - ت : عبد السلام هارون - ط : دار الجيل - بيروت - ج ٣ ص ٤٠٤ .

(٣) " قدم السارق والسارقة لأن الرجال أقوى وأشد جراً على السرقة من النساء ؛ بينما قدمت الزانية على الزاني لأن ابتداء الزنا هو من شأن النساء ؛ لتجملهن وتزينهن ؛ وهن اللاتي يُمكن الرجال من الوقوع في معصية الزنا " د / محمد محمد داود - معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم لبيان الملامح الفارقة بين الألفاظ متقاربة المعنى والصيغ والأساليب المتشابهة - ط دار غريب ص ٦١٦ .

السارق... كذلك إقامة الحد إذا لم يكن نكالا فإنه طهارة ، وإن كان نكالا فلا بد فيه من معقول الطهارة ؛ لأنه يسقط عنه في الآخرة بقدر ما أخذ فيه من الدنيا، فيسقط عن الزاني النكال وما سقط عن السارق ، فإن السارق قطعت يده وبقي مقيدا بما سرق لأنه مال الغير؛ فقطع يده زجر وردع لما يستقبل ، وبقي حق الغير عليه فلذلك جعله نكالا ؛ والنكل القيد فما زال من القيد قطع يده ، وما تعرض في حد الزاني إلى شيء من ذلك ^(١) فكلا الحدين عقوبه وكلاهما نكال إلا أن الأولى فيها تطهير في الدنيا والآخرة ويبقى في الثانية نكالهما بقطع اليد في الدنيا ثم يقضى منه يوم القيامة حق المسروق . إنه البيان القرآني الذي لا يأتيه الباطل من بين يده ومن خلفه ، والحق سبحانه - " لم يرض لنظم كتابه الذي سماه هدى وشفاء ، ونورا وضياء ، وحياة تحيا بها القلوب ، وروحا تتشرح عنه الصدور ، ما هو عند قوم خوطبوا به خلاف البيان " ^(٢) فكل سياق مهما اشترك في البناء والوحدات مهما تماثلت دوالها؛ فكل له خصوصية تفسيره .

- من الشواهد القرآنية التي أوردها "ابن عربي" وكانت الموزانة بينها من حيث المشترك اللفظي؛ بما يحمله من " كلمات مختلفة الدلالة أو المعنى ذات صبغة لغوية واحدة " ^(٣) ؛ وهو أحد أسرار البيان القرآني ؛ إذ تقع اللفظة الواحدة على معنيين ، فإننا من جانب آخر نجد اللفظ الواحد له ذات الدلالة ويستخدم في موضعين وموضوعين مختلفين من ذلك لفظ "الإيمان" إذ هو التصديق الكامل بالشيء والمؤمنون بالله هم الذين أخلصوا دينهم لله. وقد ورد

(١) الفتوحات المكية - ج ٨ ص : ٢٩ ، ٣٠ .

(٢) عبد القاهر الجرجاني - أسرار البلاغة - ت هـ ريتز - مكتبة المتنبي - القاهرة - ص ٣٦٤ .

(٣) كارل ديتز بونتيج - المدخل إلى علم اللغة - ترجمة : د سعيد البحيري - مؤسسة المختار - ٢٠٠٣ - ص ٢٥٦ .

تأويل الشاهد القرآني في كتاب (الفتوحات المكية)

ذكر المؤمن في قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً ﴾
"النساء ٩٢" وقال ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ ﴾ العنكبوت ٥٢ فسامهم مؤمنين ،
وقال ﴿ وَإِنْ يُشْرِكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ﴾ غافر ١٢ فسمى المشرك مؤمناً فهو لاء هم
المؤمنون الذين أيده الله بهم في قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ
وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ﴾
النساء ١٣٦ فميزهم عن المؤمنين من أهل الكتاب^(١) ، ... فتعين أن المؤمنين
الذين أمروا بالإيمان أنهم الذين آمنوا بالباطل وآمنوا بالشريك عن شبهة
صرفتهم عن الدليل ؛ لأن الذين آمنوا بالباطل كفروا بالله ؛ والذين آمنوا
بالشريك اشأزت قلوبهم إذا ذكر الله وحده ؛ فما آتاهم بهذا إلا أئمتهم
المضلون الذين سبقوهم ؛ وكان ذلك في زعمهم عن برهان أعني الأئمة لا
عن قصور بل وفوا النظر حقه فيما أعطاهم أتباعهم وصدقوا في إيمانهم وما
قصدوا إلا طريق النجاة ما قصدوا ما يريدون . ولما رأوا أن الله يفعل ابتداءً ؛
ويفعل بالآله جعلوا الشريك معينا على ظهور بعض الأفعال الحاصلة في
الوجود ؛ فلما ذكر الله وحده ورأوا أن هذا الذاكر لم يوف حقه ؛ لما علموا
من توقف بعض الأفعال على وجود الخلق ... فلم يقبلوا توحيد الأفعال ... فهذا
الذي أداهم إلى الاشتمئزاز وعدم الإنصاف ؛ فذمهم الله إيثارا لجناح المؤمنين
الذين لم يروا فاعلا إلا الله ... فهذه الطائفة هي التي خص الله بهذا الخطاب .
أما الذين كفروا بالله فهم الذين ستروه بحجاب الشرك وآمنوا بالباطل ؛

(١) جاء في الجامع لأحكام القرآن - مج ٣ ص: ٣٦٠ أن الآية نزلت في جميع المؤمنين
والمعنى : يأيتها الذين آمنوا صدقوا أقيموا على صدقكم واثبتوا عليه "وذكر الزمخشري
أن الخطاب للمسلمين . ومعنى آمنوا اثبتوا على الإيمان وداوموا عليه وازدادوه و
الكتاب الذي أنزل من قبل المراد به جنس ما أنزل على الأنبياء قبله من الكتب...وقيل:
الخطاب لأهل الكتاب ؛ لأنهم آمنوا ببعض الكتب والرسول وكفروا ببعض ... وقيل في
المنافقين وكأنه قال : يأيتها الذين آمنوا نفاقا آمنوا إخلاصا " الكشف ج ١ ص ٥٧٥ .

والباطل عدم ... فالكل مؤمنون ، فإن الله سماهم مؤمنين كما سماهم كافرين ومشركين وجعلهم على مراتب في إيمانهم ... فيما آمنوا به ، كما زادهم مرضاً ورجساً إلى رجسهم فيما كفروا ... فينصر الله المؤمن الذي لم يدخله خلل في إيمانه ؛ فإن الله يدخله على قدر ما دخله من الخلل أي مؤمن كان من المؤمنين ؛ فالمؤمن الكامل الإيمان منصور أبداً . ولهذا ما انهزم نبي قط ولا ولى ألا ترى يوم حنين لما ادعت الصحابة توحيد الله ثم رأوا كثرتهم فأعجبته كثرتهم فنسوا الله عند ذلك ؛ فلم تغن عنهم شيئاً ... مع كون الصحابة مؤمنين بلا شك ، ولكن دخلهم الخلل باعتمادهم على الكثرة ونسوا قول الله تعالى ﴿ كَمْ مِّنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ البقرة ٢٤٩ ؛ فلما أذن الله هنا إلا الغلبة فأوجدها فغلبتهم الفئة القليلة بها عن إذن الله " ١ فالكافر والمشرک سماهما الله مؤمنين ؛ إذ الإيمان شدة اليقين بما رأى فيه الإنسان عين الصواب ؛ ووثق فيه (٢) وزينت له نفسه ؛ وجره هواه إلى الاقتناع به ؛ فالكافر مؤمن بالباطل وهو الجحود بالله ؛ والمشرک مؤمن بما اتخذهم من دون الله أندادا ، فاللفظ المذكور هنا ليس هو الاصطلاح العقائدى وإنما هو المعنى المعجمي .

- وقد تكون الدلالة واحدة ولكن اختلافها في الدرجة كما في قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ النساء ٥٩ يقول "ابن عربي " " فلكل طاعة دلالتها فطاعة الله فيما جاء به على لسان

(١) الفتوحات المكية - ج ٦ ص : ٥٢ ، ٥٣ .

(٢) " الإيمان ضد الكفر والإيمان بمعنى التصديق ضده التأكيد يقال آمن به قومٌ وكذب به قومٌ ... يقال ما آمنْتُ أن أجِدَ صحابةً إيماناً أي ما وثقتُ والإيمان ... الثقة ورجل أمانةٌ بالفتح للذي يُصَدَّقُ بكل ما يسمع ولا يُكذَّبُ بشيء ورجل أمانةٌ أيضاً إذا كان يطمئن إلى كل واحد ويثق بكل أحد ... " ابن منظور التوحيدي - لسان العرب - دار صادر - بيروت - ط ١ - ج ١٣ ص : ٢١

تأويل الشاهد القرآني في كتاب (الفتوحات المكية)

رسوله ﷺ وهو كل أمر جاء في القرآن الكريم ؛ ثم قال ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ النساء ٥٩؛ ففصل أمر طاعة الله من طاعة الرسول ... ثم فائدة زائدة فلا بد أن يوليه رتبة الأمر والنهي فيأمر وينهى ، فنحن مأمورون بطاعة رسول الله ﷺ عن الله بأمره ؛ وقال تعالى ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ النساء ٨٠ وطاعتنا فيما أمر الله به ورسوله ﷺ ونهى عنه ما لم يقل هو من عند الله فيكون قرآنا ؛ قال الله عز وجل ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ الحشر ٧ فأضاف النهي إليه فأتى الألف واللام في الرسول ﷺ يريد بهما التعريف والعهد أي الرسول الذي استخلفناه عنا فجعلنا له أن يأمر وينهى زائدا على تبليغ أمرنا ونهيها إلى عبادنا . ثم قال في الآية ﴿ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ النساء ٥٩ أي إذا ولي عليكم خليفة عن رسول الله ﷺ أو وليتموه من عندكم كما شرع لكم فاسمعوا له وأطيعوا ... ولهذا لم يستأنف في أولي الأمر " وأطيعوا " واكتفى بقوله " وأطيعوا الرسول " النساء ٥٩ ولم يكتف بقوله ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ ﴾ " النساء ٥٩ عن ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ النساء ٥٩ ففصل لكونه " لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ " الشورى ١١ واستأنف القول بقوله " وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ " فهذا دليل على أنه تعالى قد شرع له ﷺ أن يأمر وينهى ، وليس لأولي الأمر أن يشرعوا شريعة إنما لهم الأمر والنهي فيما هو مباح لهم ولنا ، فإذا أمرونا أو نهونا عن مباح وأطعناهم أجزنا على ذلك " (١) فطاعة الله لها دلالة ؛ وطاعة الرسول تحمل أخرى ؛ وإضمار الأمر مع أولي الأمر يشير إلى فائدة أخرى - كما اتضح في النص السابق - . فلا تكرار في القرآن بغير دلالة

(١) الفتوحات المكية - ج ١ ص : ٣٩٩ .

المبحث الثاني

خصوصية الرؤية التأويلية

من مظاهر الإعجاز القرآني أنه يفجر الطاقات الفكرية ؛ ويجذب أصحاب العقول إلى تدبر آياته وقد تأمل "ابن عربي" الآية القرآنية فتوصل إلى ومضات تأويلية خضعت لمداول اللفظ القرآني وقبّله السياق^(١) وإن كان يفجر في طياته مزيدا من النقاش ؛ من ذلك ما تناوله من أسرار التشبيه في قوله تعالى ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ النور ٣٥ فهو سبحانه وتعالى نوره مطلق ؛ وفي هذه الآية قيده بالإضافة فقال " نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" ليعلمنا مما أراد بالنور هنا ؛ فأثر حكم التعليم والإعلام في النور المطلق بالإضافة فقيده على إطلاقه بالسموات والأرض ؛ فلما أضافه نزل عن درجة النور المطلق في الصفة^(٢) فقال " مثل نوره " أي صفة نوره يعني المضاف إلى السموات والأرض^(٣) " كَمِشْكَاةٍ " أي أن ذكر المصباح ومادته

(١) يعد هذا من شروط قبول التفسير الصوفي إذ تلقى علماء المسلمين هذا الاتجاه بالرفض ومن تسمح فيهم في قبوله جعل ما سبق أحد شروطه ... محي الدين بلتاجي - دراسات في التفسير وأصوله - دار الهلال - بيروت - ط/١ ١٩٨٧ م - ص : ١٧٢ .
(٢) جاء في تفسير القرطبي ج ٦ ص : ٥٤٢ أن "هذا النور هو صفة الله حقيقية محضة ؛ إذ هو أبداع الموجودات وخلق العقل نورا هاديا ... قال ابن عرفة : أي منور السموات والأرض وكذا قال الضحاك والقرطبي وقال مجاهد : مدبر الأمور في السموات والأرض ."

(٣) رأى الزمخشري أن إضافة النور إلى السموات والأرض لأحد معنيين : إما الدلالة على سعة إشراقه وفشو إضاءته حتى تضيء له السموات والأرض . وإما أن يراد أهل السموات والأرض وأنهم يستضيئون به " مثل نوره " أي صفة نوره العجيبة الشأن في الإضاءة كمشكاة كصفة المشكاة وهي الكوة في الجدار غير النافذة ... وقال في " لا شرقية ولا غربية أراد بأن منبتها الشام " الكشف ج ٣ ص : ٢٤٠ .

== تأويل الشاهد القرآني في كتاب (الفتوحات المكية) ==

وأين صفة نور السراج وإن كان بهذه المثابة من صفة النور الذي أشرقت له السموات والأرض ؛ فعلمنا سبحانه في هذه الآية الأدب في النظر إلى أسمائه إذا أطلقناها عليه بغير إضافة كيف نفعل مثل قوله ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ النور ٣٥ فأضاف النور هنا إلى نفسه لا إلى غيره ؛ وجعل النور المضاف إلى السموات والأرض هاديا إلى معرفة نوره المطلق ؛ كما جعل المصباح هاديا لنوره المقيد بالإضافة ^(١) وعلى هذا يعود الضمير في قوله "مَثَلُ نُورِهِ" النور ٣٥ إلى النور المقيد بالإضافة وفي قوله ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ﴾ النور ٣٥ يعود الضمير على النور المطلق ، إنه على هذه الرؤية جعل التمثيل للنور الإلهي من بداية الآية لتقريب التعريف بالنور المطلق . ثم يشير إلى أن طبيعة المصباح لست ككل مصباح فهو ذو خصوصية كيفها الله بوصف تتفق والتمثيل له -تبارك وتعالى- ؛ فهو مصباح "مخصوص ما هو كل مصباح فلا ينبغي أن يقال نور الله كالمصباح من كونه يكشف كل ما انبسط عليه نوره لصاحب بصر... فإن ما ذكر ما ذكره من شروط هذا المصباح ونعوته وصفائه الممثل به سدى ؛ فمثل هذا المصباح هو الذي يضرب به المثل فإن الله يعلم كيف يضرب الأمثال" ^(٢) . وقد أول ما تصدره المشكاة من نور بأنه نور القلب المعمور فـ " ليس لقلب المؤمن النقي الورع عامر إلا الله " فهو النور العلمي المنفر للظلمة " ظلمة جهل النفس ؛ فإذا أضاعت ذات النفس أبصرت ارتباطها بربها في كونها ... وجعل هذا النور في مشكاة وزجاجة مخافة الهواء أن يجيره ويشد عليه فيطفئه " ^(٣) فهي وقاية لقلب المؤمن من الأهواء وتقلبات

(١) الفتوحات المكية - ج ٢ ص ٢٦ .

(٢) السابق ج ٦ ص : ٧٦ .

(٣) السابق ج ٣ ص : ٢٣٢ . وهذا ما رآه آخرون ففي الجامع لأحكام - ج ٦ ص : ٥٤٨ . جاء في التشبيه القول " بل وقع التشبيه فيه جملة بجملة وذلك أن يريد مثل نور الله الذي هو هداه وإتقانه في صنعه كل مخلوق وبراهينه الساطعة على الجملة ؛ كهذه الجملة من النور الذي تتخذونه أنتم على هذه الصفة ؛ التي هي أبغ صفات النور الذي بين أيدي الناس ؛ فمثل نور الله كهذا الذي هو منتهاكم أيها البشر "

النفوس ؛ فهو ستر معنوي جعله الله لنفوس مخصوصة . وقد جعل "ابن عربي" " ما بقي من الكلام من تمام كمال نور الله الذي وقع به التشبيه ما هو من التشبيه ... فالعارف يقف في التلاوة على "مصباح" ؛ ثم يقول "المصباح في زجاجة" ؛ فحديثه مع المصباح لا مع النور الإلهي الذي هو الحق الذي وسعه القلب المشبه بالمشكاة ^(١) وعلى ذلك فهو يرى أن وصف ما يصدره المصباح ووصفه بكونه في زجاجة هو تشبيه آخر يصف هيئة وقوع النور الإلهي في قلب العبد المؤمن . ثم هو في موضع آخر يتوسع في تفسيره لقوله تعالى ﴿كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ النور ٣٥ فجعل إيقاد الزجاجة " من شجرة هويته فهي لا شرقية ولا غربية لا تقبل الجهات ... وهذا النور باق بإمداد ذهني من شجرة نسبة الجهات إليها نسبة واحدة منزهة عن الاختصاص بحكم جهة وهي قوله تعالى ﴿لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ﴾ النور ٣٥ ^(٢) فهو نور الله المحيط بهذا الكون من كل اتجاه ولا وجهة مخصوصة به .

- إنه من الملاحظ أن من سمات تأويل الشاهد القرآني في كتاب "الفتوحات المكية" ما يمكن أن نطلق عليه "العدول التأويلي" فقد نفى آراء السابقين في وجود الاستعارة في قوله تعالى ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ لقمان ٧^(٣) ؛ ورأى أنها على سبيل الحقيقة كقوله تعالى ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ يس ١١ " فمن جملة الخطابات الإلهية وهي على قسمين : بشارة بما يسوء مثل قوله

(١) الفتوحات المكية - ج ٨

(٢) السابق ج ٥ ص : ٩٥ .

(٣) " فهنا استعيرت للإنذار ... وهو الإخبار بما يسئ ... فنزل التضاد منزلة التناسب وشبه الإنذار بجامع السرور في كل تحقيقا في التبشير وتنزيلا في الإنذار ؛ ثم اشتق معنى التبشير بمعنى الإنذار (استعارة تبعية تهكمية ... د / عبد الفتاح لاشين - البيان في ضوء أساليب القرآن - دار الفكر العربي - مصر - ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م - ص

تأويل الشاهد القرآني في كتاب (الفتوحات المكية)

تعالى " ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ لقمان ٧ وبشارة بما يسر كقوله تعالى ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ يس ١١ " فكل خبر يؤثر وروده في بشرة الإنسان الظاهر فهو خبر بشري ^(١) فكلاهما من الآثار التي تظهر على بشرة الإنسان من آثار الضيق أو الفرح ؛ لذا هما من اشتقاق دلالي واحد .

- وقد أخذ توجهها معاكسا مع العلماء الذين رأوا المكر والاستهزاء في العباد أصل والاستعارة تقع في قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ آل عمران ٥٤ وقوله تعالى ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ "البقرة ١٥" ^(٢) ذلك أن النعوت التي نعت الحق بها نفسه من مسمى أخبار التشبيه وآيات التشبيه على ما يزعم علماء الرسوم ، وأنه تنزل إلهي رحمة بالعباد ... وهو عندنا نعت حقيقي لا ينبغي إلا له تعالى ، وأنه في العبد مستعار كسائر ما يتخلق به من أسمائه فإنه "خَيْرُ الْمَاكِرِينَ" و"اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ" بالمستهزئين من عباده باستهزاء ومكر هو له " ﴿ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ الزمر ٢٥ وهو لا يصف نفسه بالحوادث ؛ فدل أن هذه العوت بحكم الأصالة لله ^(٣) أما ما ظهر في العبد فهو من ذلك القدر اليسير الذي علمه الله عباده فإنه سبحانه ألهم كل نفس فجورها وتقواها ؛ وأين مكرهم واستهزأؤهم من مكر الله ^(٤) واستهزائه ؟ " .

- لا شك أن الفكر الصوفي كان له أثره في مواضع عدة من ذلك العدول وهو ما يتضح في رؤيته في قوله تعالى ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى *

(١) السابق ج ٥ ص ١٢٥ .

(٢) الغزالي - المستصفى - طبعة مصورة من المطبعة الأميرية بولاق مصر - نشر دار إحياء التراث العربي - ومكتبة المتنبي - بيروت - ج ١ ص ١٠٥ . كما ناقش القضية د عبد الرحمن السديس - المجاز عند الأصوليين بين المجيزين والمانعين - مجلة أم القرى - العدد ٢٠ .

(٣) السابق ج ٣ ص ٣٣٧ .

(٤) مكر الله : استدراجه لعباده حيث لا يعلمون ... قال الزجاج : مكر الله مجازاتهم على مكرهم " فسمى الجزاء باسم الابتداء كقوله " اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ " البقرة ١٥ " .

فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿النجم: ٨ : ١٠﴾ إذ رأى الدنو والتدلي علاقة بين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ورب العزة (١) " فالعروج منا والنزول منه؛ فلنا التداني وله التدلي ؛ إذ لا يكون التدلي إلا من أعلى ولنا الترقي ؛ وله تلقى الوافدين عليه وذلك كله إعلام بالصورة التي يتجلى فيها لعباده " (٢) فالعبد يقترب من الله يتدانى إليه واقترابه منه بالعروج إلى ملكوته والتسامي وبه يتحقق " التدلي " الذي هو اقتراب وتنزل من الله " وفي عين هذا التدلي دنو من الأمر الآخر ، وكان من الآخر تدانٍ إلى مَنْ تدلى فكان دنوه عروجا ...

فتدليه دُنُو وتدانينا عروجُ (٣) .

وقد اختلف مع أغلب التفسير التي قالت بأن الفاعل واحد ؛ فمنهم من قال إنه جبريل - عليه السلام - ومنهم من قال إنه رب العزة - سبحانه - وهو ما يؤكد العطف " بالفاء " التي تقيد التعقيب والدنو يتبعه شدة اقتراب أو " تدل "

(١) ورد في الجامع لأحكام القرآن ج ٩ ص ٧٨: أي دنا جبريل بعد استوائه بالأفق الأعلى من الأرض " فتدلى " فنزل على النبي ﷺ بالوحي ؛ والمعنى لما رأى النبي ﷺ من عظمت ما رأي ، وهاله ذلك رده الله إلى صورة آدمي حين قرب من النبي محمد ﷺ بالوحي وذلك قوله فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ... قاله ابن عباس والحسن وقتادة وربيع وغيرهم ؛ وعن ابن عباس أيضا في قوله تعالى " ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى " أن معناه أن الله تبارك وتعالى " دنا " من محمد ﷺ " فتدلى " وروى نحوه أنس ابن مالك عن النبي ﷺ والمعنى: دنا منه أمره وحكمه ، وأصل التدلي النزول إلى الشيء حتى يقترب منه فوضع موضع القرب ؛ قال لبيد :

فتدليت عليه قافلا وعلى الأرض غيابات الطفل

البيت في وصف فرس ؛ انظره في الصحاح واللسان ؛ وقال الجرجاني : الكلام فيه تقديم وتأخير أي تدلى فدنا ؛ لأن التدلي سبب الدنو ، وقال ابن الأنباري : ثم تدلى جبريل أي نزل من السماء فدنا من محمد ﷺ .

(٢) الفتوحات المكية ج ٥ ص ١٧٢ .

(٣) السابق ج ٦ ص ٣٦٠ .

== تأويل الشاهد القرآني في كتاب (الفتوحات المكية) ==

"وقيل: إن الذي دنا هو ربه تعالى وهو مذهب القائلين بالجهة والمكان كما قال الحديث القدسي " من تقرب إليّ شبرا تقربت إليه ذراعا ومن تقرب إليّ ذراعا تقربت إليه باعا ومن مشى إلى أتيته هرولة " أي لما استوى النبي - صلى الله عليه وسلم - استوى وعلا في المنزلة العقلية ؛ لا في المكان الحسي قال وقرب منه الله " (١) وهذا القول الأخير هو ما اقترب منه رأي "ابن عربي" فإنه لا يكون اقتراب الله من العبد إلا إذا تقرب العبد إليه . أما صورة الاقتراب ومسافته التي ذكرت في السورة " فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى " فجاءت رؤيته لها نابعة من فكرة "وحدة الوجود" التي وُصف بها مذهبه ؛ بل يعتبرها المنظرون أنها أهم الأسس التي بنى عليها تصوفه " ومؤدى القول بوحدة الوجود : أنه ليس هناك إلا وجودا واحدا كل العالم مظاهر ومجال ، والله سبحانه هو الموجود الحق وما عداه ظواهر وأوهام لا توصف بالوجود إلا بضرب من التوسع والمجاز " (٢) وأعتقد أن هذه الرؤية انبثق منها تأويله لصفة الاقتراب وصورتها فهي علاقة بين قوسين تامين إذا اشتد اقترابهما كونا دائرة واحدة لا فصل إلا في الخط الفاصل بين قطريها وهو ما عبر عنه شعرا في قوله :

ما قاب قوسين إلا قطر دائرة تعطي التميز بين الكون والله (٣)

يقول مفسرا رأيه " وما أظهر القوسين من الدائرة إلا الخط المتوهم ... وقد قسم الدائرة إلى قوسين فالهوية عين الدائرة ولست سوى عين القوسين ؛ فالقوس الواحد عين القوس الآخر من حيث الهوية ... وإذا رفع التوهم لم يبق سوى دائرة فلم يتعين القوسان ؛ فمن كان من ربه في هذا القرب بهذه المثابة

(١) د . مجدي حسين - التوجيه اللغوي لمشكل القرآن الكريم - ط / مؤسسة حورس

الدولية - ٢٠٠٧ م - ص ٧٥١

(٢) مدرسة التأليف في الأندلس - ص ١٦٥ .

(٣) الفتوحات المكية - ج ٧ ص ٥٧ .

أعني مثابة الخط القاسم للدائرة ثم رفع نفسه منها ما يدري أحد ما يحصل له من العلم بالله وهو قوله تعالى " فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ " النجم ١٠٠ ما عَيْن لنا في الذكر الحكيم ما أوحى ولا ذكر رسول الله ﷺ ما أوحى في القرب به إليه ^(١) . لا يخفى على مطلع أن هذا التصوير للتبلي يعطي علاقة للاقتراب وهو " كناية عن المعاهدة ولزوم الطاعة ؛ لأن الحليفين في عرف العرب إذا تحالفا على الوفاء والصفاء ألصقا وتري قوسيهما " ^(٢) وفيه تفسير لدلالة "أو أدنى". إن هذه الرؤية اختص بها "ابن عربي" قبلتها الآراء أو نفتها ؛ إلا أن قيمتها تكمن - فيما أرى - في كونها تعطي دلالة " القوسين " بعدا لفظيا صريحا يعطي مزيدا من الدلالات في الآية الكريمة .

- من مظاهر "العدول التأويلي" لأخذه بظاهر اللفظ ؛ ما جاء في تأويله في قوله تعالى في قصة آدم ﴿ وَكَلَّا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ البقرة ٣٥ وعلاقتها بوسوسة إبليس كما جاءت في قوله تعالى ﴿ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ طه ١٢٠ فقد رأى أن النهي عن الاقتراب هو نهى حقيقي عن الاقتراب المكاني ؛ ولأجله كانت العقوبة " فإن الأمر بسكنى الجنة والأكل منها حيث يشاء ؛ ثم نهاه عن قرب شجرة مشار إليها أن تقربها ؛ فوق التحجير والنهي في قوله " حَيْثُ شِئْتُمَا " ^(٣) البقرة ٣٥ لا في الأكل ؛ فما حجر عليه الأكل وإنما حجر عليه القرب منها الذي كان قد أطلقه " حَيْثُ شِئْتُمَا " البقرة ٣٥؛ فما أكلا منها حتى قربا منها فأخذوا بالقرب لا

(١) السابق نفسه .

(٢) الكشف ج ٤ ص ٤٢٠ .

(٣) رأى الزمخشري أن في هذا القول الكريم " حَيْثُ شِئْتُمَا " إطلاق للأكل وتوسعة أي : أي مكان من الجنة شئتما أطلق لهما الأكل من الجنة على وجه التوسعة البالغة المزيحة لليلة ... " الكشف ج ١ ص ١٢٧ .

تأويل الشاهد القرآني في كتاب (الفتوحات المكية)

بالأكل^(١) وهو تأويل مصدره الأخذ باللفظ الصريح الحقيقي ، ولم يلتمس طريقة العرب في القول إذ يقتضي النهي عما كانت فيه الإباحة عدم الأكل " أي لا تقرباها بأكل لأن الإباحة وقعت فيه "^(٢) لقد أغرى الشيطان آدم بالأكل من الشجرة إذ هي شجرة الخلد ؛ بها يكون الملك الذي لا يبلى فهل للشجرة تلك الخاصية ؟ يرى "ابن عربي" أن الإجابة بنعم ، فقد كان لآدم بعد " المؤاخذه الإلهية ما أعطته خاصية تلك الشجرة لمن أكل من ثمرها من الخلد " وَمَلَكٌ لَّا يَبْلَى " وكان ذريته فيه لما وقع منه ما وقع ؛ ثم أهبط للخلافة وحواء للنسل لأنها محل التكوين فخرجت الذرية بعد أن تاب الله عليه ... "^(٣) لقد نظر "ابن عربي" إلى أن الخلود تحقق بالذرية والملك ؛ تحقق بخلافة الأرض وتوالي الذراري فيها بالنسل والعمارة ؛ ولكن أليس هذا الخلد يبلى بقيام الساعة ؟ وهو ما يؤكد أن إغراء إبليس كان عن جهل منه بحقيقة الشجرة وكنهها وسر النهي عن الأكل منها .

(١) الفتوحات المكية ج ٤ ص ٢٩٠ .

(٢) ورد في الجامع لأحكام القرآن مج ١ ص ٢٨٣ ، ٢٨٤ " قال ابن العربي سمعت الشاشي في مجلس النضر بن شميل يقول : إذا قيل لا تقرب " بفتح الراء " كان معناه لا تلتبس بالفعل وإذا كان بضم "الراء " فإن معناه لا تدن منه ، وفي الصحاح ١ / ١٩٨ قَرُبَ الشيء يقترب قربا أي دنا منه وقربته " بالكسر " أقربه قربانا أي دنوت منه ؛ وقربت أقرب قرابة - مثل كتبت أكتب كتابة - إذا سرت إلى الماء وبينك وبينه ليلة والاسم القَرَب ... قال بعض العرب الحذاق : إن الله تعالى لما أراد النهي عن أكل الشجرة نهى عنه بلفظ يقتضي الأكل وما يدعو إليه العرب وهو القرب . قال ابن عطية وهذا مثال بين في سد الذرائع ؛ وقال بعض أرباب المعاني قوله " لا تقربا " إشعار بالوقوع في الخطيئة والخروج من الجنة " .

(٣) الفتوحات المكية - ج ٤ ص ٢٩٠ .

- من مظاهر "العدول التأويلي" للسبب عينه - الأخذ بظاهر اللفظ - تأويله للاستفهام في قوله تعالى ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَبْتَ لَهُمْ﴾ التوبة ٤٣ إذ رأى فيه استفهاما محضا ؛ وأن هذه الآية " بشرى خاصة ما فيها عتاب ؛ بل هو استفهام لمن أنصف وأعطى أهل العلم حقهم " (١) وهو بذلك يخالف ما ورد في التفاسير التي رأت فيه استفهاما إنكاريا (٢) ؛ عتابا لرسول الله ﷺ " عفا الله عنك كناية عن الجناية لأن العفو رادف لها . ومعناه : مالك أذنت لهم في القعود عن الغزو حين استأذنوك واعتلوا لك بعلمهم ؟ وهلا استأنيت بالإذن حتى يتبين لك من صدق في عذره ممن كذب فيه . وقيل شيئان فعلهما رسول الله ﷺ ولم يؤمر بهما : إذنه للمنافقين ، وأخذه من الأسارى ، فعاتبه الله تعالى " (٣) . ولم يعلل "ابن عربي" لماذا رأى فيه استفهاما محضا ليس فيه عتاب ؛ وهو ما لم يقوؤ رؤيته التأويلية في هذا الموضع .

- توقف أيضا عند تكرير لفظ "أمة" و"نذير" في قوله تعالى ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ "فاطر ٢٤" فرأى أنها تنفي التعميم لا التخصيص ، و التوسيع لا التصيق " فذكر الأمة والنذير وهم من جملة الأمم ؛ ونذيرهم قد يكون لكل واحد منهم نذير في ذاته ؛ وقد يكون للنوع من جنسه لابد من ذلك من حيث

(١) الفتوحات المكية - ج ١ ص ٣٤٩ .

(٢) فخر الدين الرازي - التفسير الكبير - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م ص ٦٠ وقال " قدم العفو تطمينا لقلبه " السابق .

(٣) الكشف ج ٢ ص ٢٧٤ . قيل في الإنذن ... قولان : الأول " لِمَ أَذْنَبْتَ لَهُمْ " في الخروج معك وفي الخروج معك ، وفي خروجهم بلا عدة ونية صادقة فساد . الثاني " لِمَ أَذْنَبْتَ لَهُمْ " في القعود لما اعتلوا بالأعذار ؛ ذكرها القشيري قال : وهذا عتاب تطف ، إذ قال " عفا الله عنك " وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنن من غير وحي نزل فيه "... الجامع لأحكام القرآن - مج ٤ ج ١٠ ص ٤٨٩ .

تأويل الشاهد القرآني في كتاب (الفتوحات المكية)

يعلمه ولا يعلمه ولا يشهده إلا مَنْ اشهده الله...^(١) فجعل دلالة النذير ليست في النبوة فحسب وإنما جعل طرق الإنذار مختلفة ، حتى أنها قد تكون هي ذات النفس الإنسانية ؛ تملئ على صاحبها وتنذره وتحذره بإلهام من الله ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ "الشمس" ٨ وهنا يكون النذير شديد الخصوصية، وقد تتوسع تلك الخصوصية حينما يكون النذير من الناصحين المخلصين من غير وحي ولا رسالة ؛ وهم الدعاة إلى الله على بصيرة ؛ كذلك الرجل المؤمن من آل فرعون الذي ورد ذكره في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ غافر ٢٨ وبهذا يكون التكرير في هذه الآية منح بعدا تأويليا ؛ وسع مفهوم النذير .

- وقد يعطى التكرير دلالات التنوع للأمر الواحد ؛ كما في قوله تعالى ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ الشرح ٦٥ ، لأنه سبحانه نكر اليسر وأدخل الألف واللام اللتين للعهد والعريف على العسر أي هذا العسر الثاني هو عين الأول وليس ذلك في اليسر ؛ وهو تنبيه عجيب من الله لعباده ليقوي عندهم الرجاء والطمع في رحمة الله ؛ فإنه أرحم الراحمين... لا خاب من أحاطت به رحمة الله من جميع جهاته "^(٢) فتعريف العسر دل على أحاديته ؛ وتكرير اليسر دل على تنوع أبواب انفراج ذلك العسر ، فالعسر واحد واليسر زمر ، وعلى هذا تكون دلالة " يسرا " المكررة مرتين في صورة التكرير تحمل في باطنها دلالات تختلف الثانية عن الأولى ؛ وإن كان اللفظ واحدا و " العسر " المكرر مرتين في صورة التعريف لا يحمل إلا دلالة واحدة ^(٣) .

(١) الفتوحات المكية - ج ٦ ص ٢٨٣ .

(٢) الفتوحات المكية - ج ٦ ص ٣٧٣ .

(٣) قال قوم : هذا التكرير تأكيد للكلام كما يقال ارم ارم ، اعجل اعجل ... ونظيره تكرر الجواب ؛ بلى بلى ، لا لا ؛ وذلك للإطناب ؛ قال قوم : إن من عادة العرب إذا ذكروا اسما معرقا ثم كرروه ؛ فهو هو ؛ وإذا نكروه ثم كرروه فهو غيره، وهما اثنان ؛ =

- في تناوله لدلالات تراكييب الأنبياء رأى "ابن عربي" أن العطف في قوله تعالى ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ آل عمران ١٨ دلالة على أن الشهادة جاءت عن طريق العلم لا عن طريق الإيمان ؛ لأن الشهادة تكون عن طريق العلم اليقيني المدرك ؛ وإلا لا تصح الشهادة يقول " فقال الله سبحانه "وَأُولُو الْعِلْمِ" (١) ولم يقل أولوا الإيمان فإن شهادته بالتوحيد لنفسه ما هي عن خبر فيكون إيماناً ، ولهذا الشاهد فيما يشهد به لا يكون إلا عن علم ؛ وإلا فلا تصح شهادته . ثم إنه عز وجل عطف الملائكة على أولي العلم على نفسه " بالواو" وهو حرف يعطي الاشتراك ؛ ولا اشتراك هنا إلا في الشهادة قطعاً ؛ ثم أضافهم إلى العلم لا إلى الإيمان ؛ فعلمنا أنه أراد مَنْ حصل له التوحيد من طريق العلم النظري أو الضروري لا من طريق الخبر كأنه يقول : وشهدت الملائكة بتوحيدي بالعلم الضروري من التجلي الذي أفادهم العلم وقام لهم مقام النظر الصحيح من الأدلة؛ فشهدت لي بالتوحيد كما شهدت لنفسي ؛ وأولوا العلم بالنظر العقلي الذي جعلته في عبادي ، ثم جاء بالإيمان بعد ذلك في الرتبة الثانية من العلماء وهو الذي يعول عليه في السعادة ؛ فإن الله به أمر و سميناه علماً ليكون المخبر هو الله فقال ﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ محمد ١٩ وقال

"ليكون أقوى للأهل ؛ وأبعث على الصبر ، قاله ثعلب ، قال ابن عباس : يقول تعالى خلقت عسراً واحداً وخلقته يسرين... وبهما اجتمع يسر الدنيا ويسر الآخرة " الجامع لأحكام القرآن ج ١٠ ص ٣٤٨

(١) قيل : إن المراد بأولي العلم الأنبياء عليهم السلام ، وقال ابن كيسان : المهاجرون والأنصار ؛ ومقاتل : مؤمنو أهل الكتاب ؛ والسدي والكلبي : المؤمنون كلهم ؛ وهو الأظهر لأنه عام ... الجامع لأحكام القرآن مج ٢ ج ٣ ص ٤١٤ . وقيل : هم الذين يثبتون وحدانيته وعدله بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة وهم علماء العدل والتوحيد . الكشف ج ١ ص ٣٤٤ .

تأويل الشاهد القرآني في كتاب (الفتوحات المكية)

﴿وَلْيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ إبراهيم ٥٢ ... " (١) فالعلم إدراك وبه تحصل المعرفة الذاتية ، و الإيمان عن طريق الإخبار من الله تعالى بالوحي . وفي الآية دليل على فضل العلماء إذ قرنهم - سبحانه - باسمه وملائكته في الشهادة بالوحدانية وقيامه بالقسط الذي هو العدل فيما قسم من الأرزاق والآجال والإثابة و العقوبة وفي جميع ما قسم في الكون ؛ وما كان ذلك إلا باستبصارهم ونظرهم العقلي في الحقائق .

جانب بلاغي جلّاه العطف في هذه الآية ؛ فقد جاءت شهادة الله تعالى على ذاته بالوحدانية ثم عطف الملائكة وأولي العلم إذ " شبهت دلالاته على وحدانيته بأفعاله الخاصة التي لا يقدر عليها غيره ؛ وبما أوحى من آياته الناطقة بالتوحيد كسورة الإخلاص وآية الكرسي وغيرهما بشهادة الشاهد في البيان والكشف ... " (٢) وهنا يكون لفظ "الشهادة" له دلالة مجازية وأخرى حقيقية فإسناده إلى الله ليس كإسناده إلى خلقه .

لقد استغرق المؤلف عددا من الشواهد مبديا فيها آراءه الخاصة التي تفرد بها في مواضع واقترب مع الآخرين في أخرى ؛ كشفت في مجملها عن دقة في التأمل ؛ وجهد في التفحص ، منه ما يحتاج إلى نقاش طويل ؛ ومنه ما هو مرفوض جملة وتفصيلا كوجهة نظره في قبول إيمان فرعون ؛ وهو ما بذل في إثباته تأويلا طويلا استطرده فيه في مواضع عدة في كتابه؛ فالقرآن عند

(١) الفتوحات المكية - ج ١ ص ٤٩١ .

(٢) الكشف ج ١ ص ٣٤٣ . وجاء العطف بالملائكة وأولي العلم على الإقرار بالوحدانية والقيام بالعدل بين العباد وكأنه قيل " شهد الله والملائكة وأولوا العلم أنه لا إله إلا هو وأنه قائم بالقسط " السابق ص ٣٤٤ .

===== د . مها محمد زكي يس خضر =====

الصوفية " و ثقة تتمتع بمستويات كثيرة من الإرسال لكل مستوى منها معنى يتفق مع قدرة القارئ على الاستيعاب "(١) .

هذا ويبقى الشاهد القرآني في الفتوحات المكية في حاجة إلى مزيد من البحث ؛ خاصة أن هذه المحاولة اكتفت بالمثال دون الحصر ؛ وركزت على ما يتصل بجانب التأويل النظري .

(١) إدريس شاه - الصوفيون - ترجمة : بيومي قنديل - دراسة : هالة أحمد فؤاد - المجلس الأعلى للثقافة - ط/١ - ٢٠٠٥ ص ٥٤٣ .

الخاتمة

إن في جهد " ابن عربي " في تأويل الشاهد القرآني - رغم ما يحيط به من جدال - ما يدعو الباحث إلى دراسة ما جاء به من طرح ، ولأن السير في الدروب الشائكة يحتاج إلى مزيد من توخي الحذر ؛ فقد وضعت ضوابط لاختيار الشواهد موضع التمثيل ؛ منها أن يتصل بما تنوط به الدراسة ؛ وما يحقق إضافة في مجال الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم ، ويبتعد عن الشطحات غير المثمرة . ولكي نقف على جوانب الانفراد أو الاقتراب والاتفاق مع غيره في الموضوع عينه وقد أوردت آراء "الزمخشري" في "الكشاف" وما ورد في "الجامع لأحكام القرآن" لكون الأول اعتنى بالجانب البلاغي في التأويل ، والثاني اشتمل على مجمل الآراء التي وردت في التفسير بالمأثور والرأي ، وقد توصلت إلى نتائج عدة أثبتتها في ثنايا الدراسة ؛ أهمها :

١- أن تناوله للآيات لم يتجه كله إلى " إشارات " الصوفية التي تتسم بالباطنة في نظرتها للمضامين ؛ ولكنه اتجه في تأويل كثير منها إلى طرق شتى أقربها إلى الموضوعية "التأويل النظري".

٢- نظرتة إلى دلالات الآيات اللغوية والبلاغية - موضوع الدراسة - تتم عن تمكن لغوي وعمق في النظرة البلاغية .

٣- لم يبتعد عن ثقافته الفلسفية في طرح الأفكار ؛ فأسلوبه في استنباط النتائج وبحثه عن العلل يؤكد ذلك .

٤- أنه اطلع على ما سبقه من تفاسير ؛ ولكنه لم يكن ناقلًا أو جامعا ولا متأثرا؛ وإنما استوعبها واتفق مع ما ورد في مواضع ؛ وفي أخرى انفرد بفكره الخاص .

٥- جعل ظاهر اللفظ هو الأساس الأول في تأويله لآيات اتفق أغلب المفسرين على مجازيتها فخالف وأغرب .

٦- عمد في استنباطه لأسرار الآيات إلى أساليب متنوعة في الطرح ؛ منها المقارنة بين التراكيب متقاربة الأبنية لإظهار الفروق الدلالية ، ومنها ما كان تعمقا في آية واحدة .

٧- خاض بجرأة علمية في مسائل مر عليها العلماء بعبارة مقتضبة حذرة ؛ منها ما كان نقلا حرفيا تتابعا ؛ خوفا من مزالق التعمق .

٨- استعان بنظم فكرته شعرا فقدم قولاً مجملاً ساعد القارئ على استيعاب الفكرة .

٩- إن تناوله للآيات من جوانب مختلفة منها ما هو بلاغي أو إشاري ؛ أو كوني أو علمي ... يدفعنا إلى الاعتراف بتبحره في فروع المعرفة المختلفة؛ فتقافته موسوعية .

١٠- ما ورد في كتاب " الفتوحات المكية " يمكن أن نصنفه ضمن " الخواطر " إذ وقفاته جاءت في ثنايا طرحه لموضوعات مختلفة لا صلة لأحدها بالآخر؛ استشهد خلالها بآيات من القرآن الكريم وعرج عليها برؤية تأملية تتبع من فكره الخاص ؛ لذا لا يمكن أن نعتبرها قولاً فصلاً ؛ ولا نعدّها مصدراً أساسياً في التأويل .

إن كتاب " الفتوحات المكية " شاهد على حرية الإبداع في الثقافة العربية؛ إذ لا يزال يحظى بإقبال القارئ رغم ما فيه من " شطحات " فكرية و " سقطات " عقائدية .

== تأويل الشاهد القرآني في كتاب (الفتوحات المكية) ==

المصادر والمراجع

- ابن الأثير - المنهل السائر في أدب الكاتب والشاعر - ت / محمد محيي الدين عبد الحميد - المكتبة العصرية - بيروت - ١٩٩٥.
- ابن تيمية - مجموع الفتاوى - ط مجمع الملك فهد - المدينة المنورة
- ابن عربي - الفتوحات المكية - ضبطه أحمد شمس الدين - دار الكتب العلمية - بيروت - ط/٢ - ٢٠٠٦ م - ١٤٢٧ هـ .
- ابن عربي - تفسير "ابن عربي" ط صادر - بيروت
- ابن منظور التوحيدي - لسان العرب - دار صادر - بيروت - ط ١ .
- أبو بكر الأنباري - الأضداد - ت : محمد أبو الفضل إبراهيم - دائرة المطبوعات والنشر - الكويت .
- إدريس شاه - الصوفيون - ترجمة : بيومي قنديل - دراسة : هالة أحمد فؤاد - المجلس الأعلى للثقافة - ط/١ - ٢٠٠٥ .
- بدر الدين الشوكاني - الصوارم الحداد القاطعة لعلائق مقالات أرباب الاتحاد - ت : د / محمد ربيع هادي - ط ٢ - ٢٠٠٧ م - مكتبة عبدالمنصور بن محمد - القاهرة .
- تمام حسان (دكتور) - اللغة العربية معناها ومبناها - ط ٤١ - الهيئة المصرية للكتاب - ١٩٧٩ .
- حفني محمد شرف (دكتور) - الإعجاز البياني بين النظرية والتطبيق - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة ١٩٧٠ م

===== د . مها محمد زكي يس خضر =====

- الخطيب الإسكافي - درة التنزيل وغرة التأويل في بيان المتشابهات في كتاب
الله العزيز - دار الآفاق الجديدة - بيروت .

- الذهبي - سير أعلام النبلاء - دار الحديث - القاهرة - ط / ١٤٢٧ هـ -
٢٠٠٦ م .

- الذهبي ؛ محمد حسين - التفسير والمفسرون - مكتبة وهبة ٢٠٠٣ .

- الزركشي - البرهان في علوم القرآن - دار الفكر - بيروت .

- الزركلي - الأعلام - دار العلم للملايين - بيروت .

- سيبويه - الكتاب - ت : عبد السلام هارون - ط : دار الجيل - بيروت .

- الزمخشري - الكشف - ط / دار الكتاب العربي - بيروت - ١٤٠٧ هـ -
ج / ٤ ص ١٠٦ .

- سعيد البحيري (دكتور) - علم لغة النص ؛ المفاهيم والاتجاهات - ط /
لونجمان - ١٩٩٧ - ص ١٤٠ .

- سعيد بحيري (دكتور) (مترجم) علم لغة النص - مدخل متداخل
الاختصاصات - دار القاهرة - ٢٠٠٥ - ط ٢ .

- عبد الفتاح لاشين (دكتور) - البيان في ضوء أساليب القرآن - دار الفكر
العربي - مصر - ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م .

- عبد القاهر الجرجاني - أسرار البلاغة - ت هـ ريتز - مكتبة المتنبى -
القاهرة .

- ===== تأويل الشاهد القرآني في كتاب (الفتوحات المكية) =====
- عبد القاهر الجرجاني - دلائل الإعجاز - ت : محمد التيجي - ط - دار الكتاب العربي - ط ١ - ٢٠٠٥ م .
- الغزالي - المستصفى - طبعة مصورة من المطبعة الأميرية بولاق مصر - نشر دار إحياء التراث العربي - ومكتبة المتنبى - بيروت - ج ١ ص ١٠٥ .
- فخر الدين الرازي - التفسير الكبير - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م .
- القرطبي - الجامع لأحكام القرآن - راجعه وضبطه وعلق عليه د/ محمد إبراهيم الحفناوي - دار الحديث - القاهرة - ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م .
- كارل ديتير بوننتج - المدخل إلى علم اللغة - ترجمة : د سعيد البحيري - مؤسسة المختار - ٢٠٠٣ .
- مجدي حسين (دكتور) - التوجيه اللغوي لمشكل القرآن الكريم - ط / مؤسسة حورس الدولية - ٢٠٠٧ .
- محمد محمد داود (دكتور) - معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم لبيان الملامح الفارقة بين الأنفاظ متقاربة المعنى والصيغ والأساليب المتشابهة - ط دار غريب .
- محي الدين بلتاجي - دراسات في التفسير وأصوله - دار الهلال - بيروت - ط ١ / ١٩٨٧ م .
- مسلم (الإمام) ط دار إحياء الحديث - بيروت - ت / محمد فؤاد عبد الباقي

===== د . مها محمد زكي يس خضر =====

- مصطفى إبراهيم المشيني- مدرسة التأليف في الأندلس-مؤسسة الرسالة- بيروت- ط/١ ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

- نور الهدى لوشن (دكتوراه)- علم الدلالة دراسة وتطبيقا - منشورات جامعة قاريونس - بنغازي.

المجلات

- د عبد الرحمن السديس - المجاز عند الأصوليين بين المجيزين والمانعين - مجلة أم القرى - العدد ٢٠ .

- مصطفى تاج الدين (دكتور) - النص القرآني ومشكل التأويل - مجلة / إسلامية المعرفة - مصر - السنة الرابعة - العدد الرابع عشر

* * *

